المازنى

ساخر العصر الحديث

بقلم د. أحمد السيد عوضين

مشاهير الكتاب العرب للناشئة والشباب



الدار المصرية اللبنانية

(مشاهير الكتاب العرب)

(للناشئة و للشباب)



تصميم ورسوم: محمد حجي

لا يعنى احتفاء الدار المصرية اللبنانية بالعظماء من كتاب الأمة العربية مجرد استرجاع الحديث عنهم، فذلك دور رواة السير الشعبية، ليتلهى بها البسطاء في ساعات الفراغ، بل اننا نتوخى في هذه السير مشوار العظمة نفسه، وكيف كان .. بمعنى أننا نقدم هذه الشعلة المقدسة في يقين صاحبها، ونتتبع الجهود المضنية التى بذلها، ونكرس بذلك أمام الأجيال قيمة العمل الانسانى الجاد، وكيف تكون نتيجته، فأحيانا لا يرى الناس إلا بريق العظمة دون الوقوف عند الأسباب التى صنعتها. وإننا نتوخى أيضا فى سيرة الكاتب إمكانية استدعاء شريحة بكاملها من تاريخنا الثقافى، بتفاعلاتها الاجتماعية والفكرية والسياسية .. نتأملها بالرصد والدراسة والتحليل المبسط، والأسلوب السهل الممتنع، وتلك غاية أخرى تمكن الأجيال الجديدة من الوقوف على مسار حركة الفكر وتطوره فى أمتنا العربية وخاصة أننا أشد ما نكون فى حاجة إلى تأصيل الفكر، فى خضم التحديات الفكرية والسياسية والاجتماعية التى يتحتم علينا مواجهتها بالوعى والمعرفة.

الدار المصرية اللبنانية

مشاهير الكتاب العرب

للناشئة والشباب

الدار المصرية اللبنانية

كلمة وإهـداء

هذه قراءة فى حياة وأدب المازنى ، وحياة المازنى هى أدبه ، ومن ثمّ فقولنا إن هذا الكتاب هو قراءة فى أدب المازنى لا يدل إلاّ على أنه قراءة فى حياة المازنى وفى أدبه فى الوقت نفسه .

وهذه القراءة لها أطراف أربعة :

أولها : المازنى نفسه ، فهو الكاتب ، وهو المبدع ، وهو صاحب الحياة ، وصاحب الإبداع . . وإبداعه هو خير ما يتحدث عنه ، ويدل عليه .

وثانيها : بعض من كتبوا عن المازنى ، وتناولوا حياته وإبداعه بالدراسة والعرض والتحليل . . فقد كان لكتاباتهم أثرٌ كبير فى توضيح جوانب عديدة من حياته وأدبه ما كانت لتتضح لى لولا ما قرأت لهؤلاء .

وثالثها : كاتب هذه السطور الذى عرف المازنى ، وعاش معه حياته كلها ، يقرأ له ، ويقرأ عنه ، بل ويعايش إبداعاته معايشة المُحِب المفتون .

ورابعها : أنت ـ قارئى العزيز ـ الذى سوف تشاركنى قراءة المازنى فى مسيرة حياته أولاً ، وفى عالم نثره ثانيًا . . فسوف تقرأ له ، وتقرأ عنه ، وتعيش معه كما عاش كاتب هذه السطور . . وكم كنا نود أن يشمل حديثنا شعره أيضًا لولا ضيق المقام .

وبعـد :

فهذه الصفحات مهداة إلى :

هؤلاء الأطراف الأربعة الذين شاركوا فيها ، فبفضلهم جميعًا ظهرت إلى النور . . ولا أستثنى نفسى من هذا الإهداء ، ولنا فى ذلك أسوة بالمازنى الذى أهدى روايته « إبراهيم الكاتب » إلى نفسه التى لها يحيا ، وفى سبيلها يسعى ، وبها ـ وحدها ـ يعنى طائعًا أوكارهًا . . !

وإلى الأستاذ الكبير : سامح كريّم ، فهو صاحب الفكرة فى هذه الصفحات ، ولولا تشجيعه ودفعه لى وكلماته الحبيبة ما كان هذا الكتاب ، فلا أقل من أن يسعدنى بقبول إهدائى له .

« **أحمد السيد عوضين** »

القاهرة فى ١/٨/١٩٩٧م

من رثاء العقاد للمازنى

أخى إبراهيم

أميـرُ بـلاغــةٍ وأمينُ نقـدٍ ... وربُّ رسالــة ، وبشيرُ عهـدِ
وذو قلـم كغصن الـروضِ يُهدى ... جنـاه ، كَحَـدِّ السهـم يُـرْدى
أديبٌ راضَ أفـذاذَ المعانـى ... علـى ألفاظهـا نِـدًّا لنـدِّ
لـه لبٌّ يترجـم كـلَّ لبٍّ ... وينقـلُ عنـه مـا يُخفى ويبدى
ملءُ القلب مـن ثقـةٍ وحبٍّ ... بريء الصدر من حسدٍ وحقدِ
أراح الحاسـدين فـإن تحـدَّوْا ... لـه فضلاً ، أعَـانَ علىٰ التحدِّى
إذا اقتتلـوا علـى الجدوى رماهمْ ... بقـول أبـى عـلاءٍ « غيرُ مُجْـدِ »
وتحسبُـه استـراح إلـى سباتٍ ... ويسبقُ غايـة اليقظ المجدِّ
فسل عنـه شعاب « الضادِ » تعلمْ ... مناهـلَ فيضـه فـى كـلِّ وِرْدِ
إذاعَـمَّ المُصَـابُ بـه فويـلٌ ... لفـردٍ خصَّـه بمصـاب عـدِّ

* * *

نمينـا شعرنـا صنـويْن حينـًا ... فكيف رثـاؤه بالشعـر وحـدِى
وجـاوزنـا السهـول معـًا فماذا ... ستجـدى فـى الوعـود جهودُ فردِ
إذا ثقـل الشبـابُ ، ولـي زميـلٌ ... فيـا بـؤسَ المشيب المستبدِّ
حيـاةٌ إنْ تَطُلْ فـالويـلُ ويلى ... وإن تقصُـد فقـد أبلغتُ قصـدِي
سلامًا أيهـا الدنيـا سلامـًا ... لأنتِ أحبُّ لـى لـو عاش بعدِى

* * *

الفصل الأول

المازنــى ومسيرة حياته

حياة عريضة :

كانت حياة المازنى حياة عريضة ، وإن كانت بحساب السنين حياة قصيرة . . ولد المازنى ـ (إبراهيم محمد عبد القادر المازنى) فى التاسع من شهر أغسطس من سنة تسع وثمانين بعد الألف والثمانمائة ، (وإن كانت هناك مقولات عديدة بأن ميلاده كان فى عام ١٨٩٠م) ـ وأيًا مَا كان التاريخ الصحيح لمولده ، فهو قد ولد فى ذات التاريخ ، أو فى تاريخ مقارب لتاريخ مولدُ عملاقين كبيرين آخرين ، هما : طه حسين ، وعباس محمود العقاد . . وإذا كان كلٌّ من ثلاثتهم قد ولد فى موضع بعيد عن الآخَرَيْنِ ، فإن الحياة جمعت بين ثلاثتهم فى القاهرة ، ليكونوا على رأس بناة النهضة ، وأعلام الفكر ، وروّاد التنوير فى مصر الحديثة ، وليس معنى ذلك أنهم كانوا على اتفاق وتوافق فى مشاربهم وأفكارهم ، واتجاهاتهم ، بل إن الواقع ليؤكد أنَّ كُلاًّ منهم كانت له حياته الفكرية المتميزة ، واتجاهاته التى يتفرد بها . بل وكثيرًا ما كانت تثور بينهم معارك عديدة أدبية حينًا ، وسياسية أحيانًا أخرى، إلاّ أنه ليس من شك فى أنّ ثلاثتهم كانوا ممن أسهموا إسهامات مباشرة ـ وأصيلة ـ فيما وصلنا إليه من مكانة نودّ أن نقفز منها لنلحق بركب العالم فى القرن الحادى والعشرين .

وعلى ذلك فقد ولد المازنى مع مطلع العقد الأخير من القرن الماضى ، وشهد مولد القرن العشرين وهو فى العاشرة من عمره ، وقبل أن ينتصف هذا القرن كان وداع المازنى لهذا العالم فى العاشر من أغسطس من سنة تسع وأربعين بعد الألف والتسعمائة . . أى أن وجوده بيننا لم يكمل ستين عامًا ـ أو أكملها بالكاد ـ ليودعنا ، ويترك لنا دنيانا ، وكأنى به يردِّد كما كان يردد دائمًا : « باطل الأباطيل ، الكل باطل ، وقبض الريح . . ! » .

ونودّ أن نعرض فيما يلى لمسيرة حياة ذلك العَلَم البارز من أعلام النهضة العربية فى سطور ، وإن كانت موجزة إلاّ أنها تحرص على أن تغطى تلك الحياة العريضة بما تضمنته من جهود وتجارب لا تزال تُؤْتِى أُكُلها كل حين .

طفولة خالدة :

لم يتحدث كاتب عن طفولته مثلما تحدث المازنى ، فأنت تجد هذا الحديث يتردد فى الكثير من كتاباته ، ففى (صندوق الدنيا) ، وفى (قصة حياة) ، وفى الكثير من الفصول الأخرى نجد الحديث عن تلك الطفولة مفصّلاً وَمُطَوّلاً . . بل إن قصته (عَوْدٌ على بدء) ، وإنْ كانت لا تدور حول حياة الكاتب ، فإنها ترسم صورة ـ فيها فكاهة وطرافة ـ لارتداد رجل مكتمل الرجولة إلى مرحلة الطفولة . . بما قد يوحى بأن طفولة المازنى ظلت تشغل فكره وإبداعه طوال حياته .

ومن هنا كان اهتمام من كتبوا عن المازنى بطفولته اهتمامًا يتناسب مع أهمية تلك الطفولة ، التى يرى الأستاذ العقاد أن ملامح وسمات هذه الطفولة قد لازمت المازنى طوال حياته . وقد تحدث الأستاذ العقاد عن هذه الطفولة أكثر من مرة ، ومن ذلك ما ذكره فى تقديمه لكتاب الدكتورة

(نعمات أحمد فؤاد) عن المازنى ، حيث كتب يقول [١] :

« إن الآية التى تبدو فى جانب واحد من الشخصية المازنية أنه كان خليقًا بالمزيد من التوكيد والإسهاب ، وهو جانب الخصلة العبقرية التى قيل عنها إنها طفولة خالدة . ففى هذه الخصلة التى أخذ المازنى بالقسط الكبير منها تفسير ، بل تفسيرات جمّة للكثير من خلائقه وأطوارها التى فهمت على وجهها ، وأعوزها التفسير المفصّل فى هذا المقام » .

ويعود فيفصّل هذا الرأى فيقول :

« فالطفولة الخالدة تفسر لنا عادة الانتحال دون ذكر المصادر ، فإن الأعمال بالنيات حتى لا يصدق على شىء كما يصدق على نية المازنى وهو ينتحل الشعر ، ولا يعزوه إلى أصحابه . . والطفولة الخالدة تفسر لنا قلة الجلد على الجدّ الصارم . . وهى كذلك تفسر لنا ضيقه بالفلسفة والمباحث العريضة ، وسخريته بخلود الأدب . . وكل خصيصة مازنية نتفهمها دون أن نعرضها على هذه الخصلة ، فإنها ستظل بحاجة إلى الجلاء والإيضاح » .

وقد أغرى ذلك أحد الباحثين المنصفين ، فأنشأ كتابًا بأكمله عن هذه الناحية فى أدب المازنى ، وثمار ومظاهر ورموز هذه الطفولة فى إبداعه . . ذلكم هو الدكتور مصطفى ناصف فى كتابه المتميز : (رمز الطفل : دراسة فى أدب المازنى) [٢] .

---

(١) د. نعمات أحمد فؤاد : إبراهيم عبد القادر المازنى ـ سلسلة أعلام العرب ـ الهيئة العامة للكتاب ـ المقدمة بقلم : عباس محمود العقاد ـ ص ١٠ ، ١١ .

(٢) د . مصطفى ناصف : رمز الطفل : دراسة فى أدب المازنى ـ ١٩٦٥م ـ الدار القومية للطباعة والنشر . . وقد عرضنا من قبل لهذه الدراسة القيمة بالبحث والتحليل فى كتابنا : فى عالم المازنى ، الصادر عن سلسلة كتاب الثقافة الجديدة التى تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ العدد ٢٦ ـ يوليو ١٩٩٤م ـ ص ١٦٩ : ١٨٤ .

ومن هنا ، فإن هذه المرحلة من حياة المازنى جديرة بالوقوف عندها ، والالتفات إليها ، وسيكون مرجعنا فى ذلك ما ذكره المازنى نفسه عنها .

وأول ما نشير إليه ـ وإن لم يكن أول ما كتبه فى هذا الصدد ـ كتابه : قصة حياة . ففى تقديمه لذلك الكتاب يقول : « هذه ليست قصة حياتى ، وإنْ كان فيها كثير من حوادثها ، والأولى أن تُعدَّ قصة حياة » [1].

وكأنى به يريد أن يقول : ليست هذه قصة حياتى مكتملة ، فما أردت إلى هذا ، وإنما كل غايتى ومرادى أن أروى أبرز وأهم حوادثها ، أمّا ما أغفلته منها ـ فى هذه الصفحات ـ فتجدونه فى كتاباتى الأخرى التى سوّدْتُ بها المئات ـ بل الآلاف ـ من الصحائف ، فارجعوا إليها ـ إن كان يهمكم ذلك .

يقول المازنى فى مقدمة كتابه (قصة حياة) : « فتحت عينىّ أول ما فتحتهما فى حداثتى على دنيا تنتزع الكُرَةَ من يد الطفل وتقول له : أتظن نفسك طفلاً ، له أن يلهو ، ومن حقه أن يرتع ويلعب ؟ لشدّ ما ركبك الوهم يا صاحبى ! لا كُرَةَ ولا لعب . وعليك أن تثب الآن وثبًا من هذه الطفولة التى كان ظنك أن ترتع فى ظلها إلى الكهولة دفعةً واحدة ! حتى الشباب يجب أن تتخطاه وثبًا أيضًا » [2].

ثم يذكر بعد ذلك : « فعرفت فى التاسعة من عمرى ـ وهى سن غضة جدًّا ـ أن هناك واجبات تؤدَّى لذاتها ، وحقوقًا تُقْضَى لأنها حقوق ، لا لأن فيها متعة ولذة . وأحسست من صغرى أن شأنى غير شأن الناس ، وأنى

(١) المازنى ـ قصة حياة ـ والطبعة التى نشير إليها هى طبعة « دار الشعب » التى ظهرت بعد وفاته ، والثابت أن الطبعة الأولى لهذا الكتاب ظهرت فى عام بعد أن نشرت من قبل فصولا فى بعض الصحف، كما أنها نشرت مرة أخرى فصولاً فى مجلة آخر ساعة بعد وفاة المازنى فى عام ١٩٤٩ م.

(٢) المازنى ـ قصة حياة ـ المرجع المذكور ـ ص ٤ ، ٥ .

فقير ، وإنْ كُنْتُ مستورَ الحال ، ولكن الستر لا ينفى الشعور بالفقر ، وغضاضته ومضضه ، فأرهف ذلك إحساسى ، حتى صار ينحى بمثل حد المبراة على قلبى فيحزّه ويقطعه ، فنزعت شيئًا فشيئًا إلى الانقباض عن الناس ، واتقاء الخوض معهم فيما يخوضون ، مما يستدعى نفقة ، وتكون فيه كلفة » .

« وقوّى هذا الميل فى نفسى وعمّقه أنّى بعد الذى سمعته ووعيته من أمى قصدت إلى أخى الأكبر ـ وهو من غير أمى ـ وسألته عن مال أبينا : أين وكيف ذهب ؟ فقال وهو يكاد يشرق بدمعة ، وأنا أنظر إليه حاد العين ، إنه هو الذى أضاعه ، وجرَّ علينا هذه المحنة ، ولكنه يرجو أن يعوّضنا خيرًا مما أتلف . فأحسستُ أنى شبّبت جدًّا عن الطفولة فى تلك اللحظة ! » [1].

ولعل ذلك يوجب علينا أن نرتدّ لنترسم الصورة التى رسمها المازنى ـ بقلمه ـ لأبويه ، وأثر كلٍّ منهما عليه ، ومكانته لديه .

صورتان يرسمهما المازنى لأبيه وأمّه :

يقول المازنى عن أبيه [2] : « كان أبى مشغولاً عنّا بزوجة جديدة ، وكان عمله يضطره إلى السفر إلى إستنبول ، فكان يقضى هناك ما شاء الله أن يقضى ـ شهورًا أو عامًا أو قرابة ذلك ـ ثم يعود ومعه زوجه ، وأحسبه كان يضطر إلى الزواج اتقاء من الإثم . ولكن الغريب أنه كان إذا احتاج إلى السفر مرة أخرى يحمل معه الزوجة ويسرّحها هناك ، ويجىء بغيرها ، وأظنه كان يحب التركيات ويؤثرهن على سواهن ، وعسى أن يكون قد راقه منهن بياضهن ، وحسن التدبير ، والنظافة ، والطاعة ، والأدب . فإن يكن ذلك

(١) المازنى ـ قصة حياة ـ المرجع المذكور ـ ص ٤ ، ٥ .

(٢) المرجع المذكور ـ ص ١٤ وما بعدها .

فما ورثت عنه إلاّ نقيضه ، ولست أعنى ـ كما لا أحتاج أن أقول ـ أنى أحب الوساخة ، وسوء التدبير وقلة الأدب ـ والعياذ بالله ـ وإنما أعنى أن اللون الأسمر آثَرُ عندى ، وأحبُّ إلىّ ، وأنه إذا اجتمعت اثنتان واحدة بيضاء والأخرى سمراء ، وكانتا من الحُسْن فى منزلة واحدة ، فالسمراء عندى أجمل وأندى على القلب ، وعسى أن يكون هذا من التعصب لأمى ولنفسى ، فإنى أسمر ـ أو إلى السمرة أقرب ـ ولعلى أكره أن تزهى علىّ واحدة ببياض جلدها ، ولكن هذا شطط ، فلأرجع إلى ما كنت فيه .

ولعل الصورة لا تكتمل إلاّ إذا مضينا نستعيد بعض ما كتبه المازنى عن أُمّه . . . وفى الحقيقة أنه كتب عن أمه الكثير من الصفحات ، ولكننا نكتفى بهذه الأسطر ، ننقلها عن مقال له عنوانه : (أمى) (١):

« لا أعرف الأمهات كيف يَكُنَّ ، ولكنى أعرف أمى كيف كانت ، وأُجمل التعريف بها وأوجز الوصف فأقول : إنها كانت (رجلاً) ، وأحسب أن النساء لا يرضيهن ثناءً كهذا يسلبهن أنوثتهن ، وإنْ سرَّهن ما فيه من معنى الإكبار ، ولكن أمى لم يكن بها بال تجعله إلى شىء من هذا ، فقد اضطرت أن تمحق أنوثتها فى سن يبدأ فيها النساء ـ أو معظمهن ـ يعرفن معنى الأنوثة الكاملة ، فقد مات أبى وهى فى الثلاثين من عمرها ، وأذاقها فى حياته ما سوّد الدنيا فى عينيها ، وأنساها أنها امرأة كالنساء ، وكان أبى ـ رحمه الله ـ مزواجًا ، وكان حبه للتركيات وافتتانه بهن عجيبين ، ومن فرط حبه لهن كرهتهن أنا ، وكان يذهب كل بضعة أعوام إلى الآستانة فيبقى فيها ما شاء الله أن يبقى ، ثم يعود بزوجة من هناك يعايشها سنوات ثم يملّها ويشتهى غيرها ، فيسرحها بإحسان ويردها ويجىء بغيرها ، وهكذا .

(١) سبيل الحياة ـ الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر ـ ص ١٧ .

وتركنا أبى ذَوِى مالٍ ، فأكله أخى الأكبر ـ أعنى أنه أنفقه باليمين وبالشمال حتى أتى عليه ـ فلولا لطف الله لتسوّلنا ، أو على الأقل لما أمكن أن نتعلم ، ولكان المازنى الآن ـ على الأرجح ـ نجارًا غير حاذق ، أو شيئًا من هذا القبيل ، لكن أمى كانت حازمة مدبرة ، فوسعها بالقليل الذى أسعفها به حسن الحظ أن تربينا وتقينا المعاطب .

ولست أذمُّ أبى أو أنتقصه ، وما يسعنى أن أفعل ذلك وقد كانت أمى تثنى عليه ، ولا تنى تذكره بالخير ، ولم تنقطع قط عن زيارة قبره فى اثنتين وثلاثين سنة عاشتها بعده .

وكانت أمى ـ على صغر سنها ـ زعيمة الأسرة . وكان أهلى جميعًا يلجأون إليها يطلبون رأيها فيما يعرض لهم ، وفصلها فيما بينهم من المشاكل . وقد كان موت أبى وأنا فى التاسعة من عمرى ، وكنت ـ ومازلت مع الأسف ـ أكبر ابنيها ، فصارت تعاملنى على أنّى رب الأسرة وسيد البيت ، وتعودِّنى احترام النفس ، والتزام ما يقتضيه مقامى فى البيت وتستوجبه زعامتى للأسرة، وتنبهنى إلى (مسئولياتى) وإلى التبعات التى يحملها (رجل) مثلى . وكانت حاذقة كيِّسة فى سلوكها ، فلا نهر ولا زجر ، ولا أوامر ثقيلة ، ولا نواهى بغيضة ، ولا شطط أو إسراف ، ولا تقصير أو تفريط ، ولا إشعار بأن لحريتى حدودًا ضيقة غير معقولة أو إسراف ، ولا تقصير أو تفريط ، ولا إشعار بأن لحريتى حدودًا ضيقة غير معقولة أو محتملة ، وإن كانت الرقابة على هذا دقيقة وافية .

وكانت ـ عليها رحمة الله ـ تتوخى أن تعفينى من المنغصات ، وتتجنب أن تحمِّلنى الهموم فتستقل بها دونى ، وتتحرَّى ما يدخل على نفسى السرور ، ويشيع فيها الغبطة والرضا ، ويفيض على البيت الإيناس والبهجة . وكانت ذاكرتها قوية ، فكانت إذا جلست للسمر تتدفق بأحاديث الأيام السوالف

وكأنها تحياها من جديد ، فلا يغيب عنها حرف ، ولا يفوتها لون . وكانت ـ لقوة ذاكرتها ـ سجلاً عامًا للأهل والصواحب ، فمن نسى شيئًا فما عليه إلاّ أن يلجأ إليها . وكانت صديقاتها يستودعنها حسابهن ، وكثيرًا ما كان يحدث أن تجيء الواحدة منهن فتقول لها : إن فلانة الدلالة تزعم أن علىّ لها مبلغ كذا ، فما هى الحقيقة ؟ فتخبرها الحقيقة ، فتقوم عنها ويكون هذا هو القول الفصل .

وكانت قوية الشكيمة ، فلا رأى إلاّ رأيها فى الأسرة كلها ، وإن كانت صغرى أخواتها ، وكثيرًا ما كانت نفسى تحدثنى أن أنازعها السيادة ، ولكنى كنت لا أكاد أهمُّ بذلك حتى أرتدّ ، وكان يكفى أن ترمى إلىّ نظرة وتقول : اسْتَحِ يا ولد ، فيتحلل العزم ، وأهوى على راحتها باللثمات .

وكانت تكتفى بالنظرة الأولى إذا أمكن أن تستغنى عن الكلمة ، فكنا نتفاهم بالعيون ، والذين حولنا غافلون لا يفطنون إلى شىء » .

تلك هى كلمات المازنى عن أبيه ، ثم عن أمه . آثرنا نقلها عنه ، لأنها أوفى فى التعبير ، وأصدق فى الحديث ، وإذا كنا نكتفى بها فى الوقت الحالى للتعبير عن بعض ملامح المازنى ، فإن رسم الصورة الكاملة لتلك الملامح قد يضطرنا إلى معاودة الرجوع إلى ما كتبه عن أبويه ـ وبصفة خاصة عن أمه ـ فما نعرف كاتبًا اختصَّ أمه بمثل ما اختصها به المازنى فى العديد من كتاباته ، حتى ليمكن القول بأنه ما انقطع عن الحديث عنها فى كل ما كتب .

ضاع المال وبقى الستر :

مات والده ، وهو فى سن صغيرة ، لم يجاوز التاسعة من عمره ، وكان أبوه ذا مال وفير ، يكفى كل من خلّف وراءه ممن يعول ، إلاّ أن المال كلّه وُضِعَ فى يد أخيه الأكبر الذى أنفقه باليمين وبالشمال حتى أتى عليه . . أضاعه إلاّ القليل . . ولم يكن ذلك بالأمر غير المتوقع ، فقد وصفه المازنى

بقوله [١] : « وكان أبى فى وقت من الأوقات مدرسًا للغة العربية فى المدرسة الخديوية ، فألحق بها ابنه ليكون تحت عينيه ، فكان هذا الابن البار هو الذى زهّد أبى فى التعليم ، فنفض يده منه ، واشتغل بغيره ، ولم يطل بقاء أخى فى هذه المدرسة ، فقد طردوه ، فأدخله أبوه مدرسة صناعية ، أو زراعية ـ لا أذكر ـ وكان يبيت فيها ، فصار يغرى زملاءه بالخروج فى فحمة الليل ، وكان يربط البطاطين بعضها ببعض ، ويدليها من النافذة ، ويتخذ منها هو وزملاؤه حبلاً يتعلقون به ويتدلون ، وبه يصعدون أيضًا حين يعودون مع الدِّيَكَة . وظهر الأمر ، فاشتجر أخى مع ضابط المدرسة ، وتماسكا ، وتضاربا ، فانكسرت رجل الضابط ، ولا آخِرَ لحوادث هذا الأخ ، وقد ظل إلى آخر لحظة من حياته مولعًا بالعبث » .

وكان تصرف الأخ الأكبر فى مال الأب على هذا النحو ، قد آذى الصبىَّ وأفزعه ، حتى لقد رأى أن يتجه إلى أخيه يسائله عن مال أبيه : أين وكيف ذهب ؟ ولكن السؤال لم يسفر عن شىء أكثر من قول الأخ وهو يكاد يشرق بدمعة أنه هو الذى أضاعه ، وجَرَّ على الأسرة تلك المحنة ، وإن كان يرجو أن يعوضهم خيرًا مما أتلف !

فى تلك اللحظة ـ كما يقول المازنى [٢] : « أحسست أنى شببتُ جدًّا عن الطفولة » . . ومن هنا ندرك مدى ما خلّفه ذلك فى نفسه من أثر يصفه بقوله : « فتحت عينى أول ما فتحتها فى حداثتى على دنيا تنتزع الكرة من يد الطفل ، وتقول له : أتظن نفسك طفلاً له أن يلهو ، ومن حقه أن يرتع ويلعب ؟ لشدّ ما ركبك الوهم يا صاحبى ! لا كرة ولا لعب ، وعليك أن تثب الآن وثبًا من هذه الطفولة التى كان ظنك أن ترتع فى ظلها إلى الكهولة

---

(١) قصة حياة ـ المرجع المذكور ـ ص ١٥ ، ١٦ .
٢) المرجع المذكور ـ ص ٤ .

دفعة واحدة ! حتى الشباب يجب أن تتخطاه وثبًا أيضًا . . » (١).

« فعرفت فى التاسعة من عمرى ـ وهى سن غضة جدًّا ـ أن هناك واجبات تؤدى لذاتها ، وحقوقًا تقضى لأنها حقوق ، لا لأن فيها متعة ولذة . وأحسست من صغرى أن شأنى غير شأن الناس ، وأنى فقير ، وإنْ كنت مستور الحال ، ولكن الستر لا ينفى الشعور بالفقر وغضاضته ومضضه ، فأرهف ذلك إحساسى ، حتى صار ينحى بمثل حد المبراة على قلبى فيحزّه، ويقطّعه ، ففزعت شيئًا فشيئًا إلى الانقباض عن الناس ، واتقاء الخوض معهم فيما يخوضون مما يستدعى نفقة ، وفيه كلفة » (٢).

« وترك هذا كله أثرًا فى نفسى ، فاجتنبت أن أعاشر إلاّ الذين أرى حالهم يشبه حالى أو يقاربه ، وصرت أشعر أنى غريب إذا ألقت بى المصادفات بين قوم من السراة أو الأثرياء ، أو المتظاهرين بالغنى ، كأنهم ناس من شاكلة أخرى ، وخلق مختلف ، فكنت أنفر أشدّ النفور من مجالستهم أو مخالطتهم، ويكبر فى وهمى أنهم لا يخفى عليهم أنى نشأت فقيرًا ، وأنّى امتحنت فى صباى أقسى امتحان ، وأن ما أراه من مظاهر غناهم ليس إلاّ مخايلة مقصودة يشقون لى بها جفونى ، ويطلعونى على ما بينى وبينهم من بون » (٣).

ومع ذلك ، وبفضل حزم الأم ، وقوة شكيمتها ، وصدق فراستها ، فقد استطاعت أن تسير بقافلتها الصغيرة دون تعثر ، حتى وصلت بها إلى خير ما ترجو ، متغلبةً على كل ما لقيت من صعاب . . حتى ذلك الأثر الذى تتركه الحاجة فى النفس من ضيق بالحياة ، أو سوء ظن بها استطاعت أن تمحوه ،

(١) المرجع المذكور ـ ص ٣ .
(٢) المرجع المذكور ـ ص ٤ .
(٣) المرجع المذكور ـ ص ٥ .

فيحلّ الرضا عن الحياة محل سواه من المشاعر السوداء فى نفس المازنى . . ولكنه ليس رضا المستسلم ، بل رضا من وصل إلى الغاية ، وأوفى على الغرض ، فهو يقول (١): « ولكن قسوة الكفاح ومرارة الصبر على طول الحرمان جففتا عبراتى ، وعلمتنى أن أبكى بقلبى دون عينى ، وأن أستر ضعفى عن الناس ، فلا أبدو لهم إلاّ بصفحة وجه يقرءون فيها آيات الرضا والاستبشار والثقة ، والفضل فى ذلك لأمى » .

« والعبرة بالخواتيم ، وقد انتقلت بى الحال بعد طول الضنك إلى سعة مرضية وخير كثير ، فالحمد لله على ما أنعم ويَسَّر » .

« ورضيت عن الدنيا وانشرح صدرى للحياة ، ووجدتُ أن التسامح الذى يبعثه الفهم وصحة الإدراك أجلب لسرور القلب وطمأنينة الخاطر ، وسكينة النفس ، من تلك المرارة القديمة التى كان ينضح بها الوجه ويقطر اللسان ، وألفيتنى أغتبط بأن أتلمس ما يروق ويسرُّ من جوانب الحياة ، وأن أبرز هذه الجوانب الوضيئة للناس ، وأشركهم معى فى نعيمى بها ، وأحاول أن أفتح لهم كوى تدخل منها الشمس ، فتضىء لهم وجوه العيش ، وتمنحهم الدفء ، وتشيع الابتسام والجذل فى وجوههم وقلوبهم ، وأن أقطف لهم من أزهار الحياة ريحانًا وآسًا ونرجسًا ، وأن أُجمّل ما كان يبدو لى ولهم دميمًا ، وأزيّن العاطل ، وأُرقّق الماء فى حواشى النسيم ليعود أندى على القلب ، وأثلج للصدر » .

على أنه قد يكون لنا أن نضيف أن هذا التحول لم يأتِ ، كما يذكر ، نتيجة لتحسن الأحوال ، ولكنه تحوُّل نابع من الطبيعة السمحة ، والنفس الراضية ، وأمّا ما كان من ضيق وسوء ظن فهو عارض ، ما إن زالت أسبابه

(١) المرجع المذكور ـ ص ٦ ، ٧ .

حتى انكشف الغطاء عن الحقيقة الوضيئة لإنسان لا تشغله عوارض الحياة عن أرفع ما فى الحياة من خير وحب وجمال .

غير أن الوصول إلى تلك الحال الهادئة الراضية المرضية كانت دونه متاعب وعثرات لعلنا أن نوفق فيما يلى أن نبرز بعض صورها .

بيت .. وطفولة .. وشقاوة :

يقول المازنى[1] : « نشأت فى بيت صارم التقاليد ، فى ساحته الواسعة مُصَلًّى وميضأة ، وعلى جانبى مدخله غُرف لإقامة الأتباع ، والتلاميذ ، والمريدين ، وكانت آخر هذه الحجرات - مما يلى الساحة مباشرة - غير مسقوفة ، وكانت تتخذ اصطبلاً لمن له بغلة أو فرس أو حمار ، وبعد المغرب من كل خميس يجتمع المتفرقون من هؤلاء الأتباع فى المصلى ، ويتلون (الورد) وهم قعود ، ثم يذكرون الله ، ثم يقومون إلى صلاة العشاء ، ثم إلى الطعام ، فالخلوة ، وفى الفجر يخرجون إلى مقبرة الشيخ الكبير . . وهناك يتلى (الورد) مرة أخرى، وتعقد حلقة الذكر . . ثم يؤكل (الفول النابت) والخبز » .

« وكان يروقنى هذا ويستولى على خيالى ، فأشاركهم فيه ، وأتلو (الورد) الذى يتلونه، وأصلى على النبى كما أراهم يصلّون ، وأهز رأسى وجسمى فى الصف عند (الذكر) كما يفعلون ، وأحاول - عبثًا - أن أجعل صوتى غليظًا عميقًا ، وأرافقهم فى الفجر إلى المقبرة ، وأزيد عليهم فأعرج على قبر أبى فأزوره ، ثم أرتدّ إلى الحارة واللعب ، والقلب راضٍ ، والنفس ساكنة » .

« ولم يكن هذا بيت أبى ، وإنما كان بيتًا يسع من يشاء من الأسرة أن يذهب إليه ، ويقيم فيه ، فقد كان واسعًا كبيرًا ، فلمّا مات أبى وساءت حالنا بعده ، اتخذنا لنا فيه شقة اقتصادًا فى النفقة ، وعزّ علىّ ذلك فى أول

(١) المرجع المذكور - ص ١ .

الأمر ، فقد كان لنا بيت خاص لا يشاركنا فيه مشارك ، وكان عندنا الخادم والخادمة والبواب والبستانى ، ومن العجيب أنى أذكر مدخل البيت وساحته الرحيبة ، وحديقته والنافورة ، والحجرات من حول ذلك ، وفيها مكتب أبى ومكاتب الوكيل ومساعديه ، ولكن ما عدا ذلك بهتت صوره . وأذكر أنى كنت أدخل على أبى فى مكتبه وعنده أصحاب القضايا ، فأقف إلى جانبه وهو مكبٌّ على الورق ، وأنا ساكت لا أقول شيئًا ولا أتحرك ، حتى يرفع رأسه ويمد يده إلى فنجان القهوة ، فأقول بصوت خفيض : أبويا . . أبويا . . هات قرش . فيضع يده ثم يخرجها بما تخرج به - بقرش أو نصف فرنك ، أو أقل أو أكثر - فأتسلّل بها أُعْطِيتِهِ ، فألقَى أخى الأصغر ينتظر عند الباب ، فنخرج إلى الحارة حيث نجد بائع (الدندرمة) . . فندفع إليه ما معنا ، ونأكل حتى نشبع ونحمد الله ، ثم نميل على دكان مجاور لبيتنا فنشترى كرات وبليًا وما إلى ذلك . . نبدد الفلوس والسلام » .

« ومن الصور التى لا تزال ماثلة أمام عينى أن جدِّى دخل على أبى فى مكتبة يتوكأ على عكازه ، فنهض له أبى واقفًا ، وأفسح الزباين له ليقعد ، ولكنه لم يفعل ، والتفت إلى أبى وطلب منه شيئًا ، فاستمهله هذا ، فما كان من الجدّ إلاّ أن رفع (العكاز) وأهوى به على كتف أبى فتأوّه واختبأ تحت المكتب ، وانصرف جدّى غاضبًا ساخطًا يلعن العقوق ، وعاد إلى كرسيه فى مدخل البيت » .

ويكمل المازنى ملامح الطفولة وهو يرسم هذه الصورة[1]:

« ولست أذكر أنى هممتُ مرة باللعب إلاّ زجرنى عنه واحد من الكبار، أو مددتُ يدى إلى شىء إلاّ نُهيت عن لمسه ، وما كان أصخب السكون

(١) إبراهيم عبد القادر المازنى - صندوق الدنيا - طبعة دار الشروق - ١٩٨٠م - فصل تحت عنوان : الطفولة الغريرة - ص ٩٦ : ١٠٣ .

المقضى علىّ به ، بل ما أقلّ ما كان الجمود يرضيهم ! فأنا إذا لعبت (شقى)، وإذا سكنت فلا شك أنى مريض ! وكان ملجئى الوحيد أبى ، هو وحده الذى كان يبدو أنه يفهم ! وقلّما كنت أجالسه ، لأنه رجل ، والرجل فى ذلك العصر ، مكانه بين الرجال ، لا بين الأطفال والنساء ، حتى الأكل كان يتناوله وحده ، أو مع ضيوفه فى (منظرة) الرجال ، حتى القهوة تُصنع وتُرسل له ، فهو فى منزله وحده ، وكل من فى البيت يخدمه ، حتى أمى ، بل حتى أمه هو . يستيقظ أهل البيت ويكون هو لا يزال نائمًا ، فالكلام همس ، والسير على أطراف الأصابع ، والأطفال يُحملون إلى مكان قصّى من تلك الدور القديمة الواسعة لئلا توقظه ضوضاؤهم . ثم يفتح عينيه ، ويتثاءب فينقلب السكون جلبة . هذه تجىء بالطشت والإبريق للوضوء ، وهذه تعد الشاى ، وتلك تهيىء الطعام ، وكأنما يتعمد كل إنسان أن يسمعه صوته ، ويثبت له أنه يتحرك فى خدمته ، فالأصوات عالية، والنداءات متتابعة ، و (القباقيب) ملبوسة ، والأرجل تدب ، ويكون الشىء المطلوب تحت أنف الطالب ، فيقطع المكان ذاهبًا وآيبًا عشر مرات قبل أن يمد يده إليه ، ويصيح وينادى ويسأل عنه كل مخلوق قبل أن يتفضل ويراه ، ويحاسب كل من فى البيت على اختفائه ، ويتوعد ، وينذر حتى إذا ظهر ـ وهو أدنى شىء منهم جميعًا ـ انطلق طالبه المتعامى عنه يصف الإهمال والعَمَى بما يفتح الله به عليه . ثم تُقصّ هذه الحكاية بتفصيل وافٍ شافٍ لأبى ، وهو يفطر أو يشرب القهوة على سبيل الاعتذار من الإبطاء عليه ، والشكوى من الخدم وسائر أهل البيت ، والتذمر من الدنيا وسوء الحظ فيها،والمتبرم بهذه المتعبات التى تحفل بها ساعات الليل والنهار. . ».

« نعم ، كان المنزل جحيم الأطفال ، فالطفل مُطالَب بأن يكون له عقل الكبار ، واتزانهم وفهمهم ، ولكنه محروم من مزاياهم ، ولا يُعامَل معاملاتهم . وكل شىء يصدر عنه معيب وخطأ ، فاللعب عيب ، والصمت عيب ، والتهويم فى المجلس عيب ، والأرق عيب ، والاستفهام عيب ، ، ولا شىء فيما يرى الطفل محمود مشكور » .

بقى أن نقول : إن المازنى وُلد (لأب حضر العلم فى الأزهر) ، وعمل فى تدريس اللغة العربية فترةً ، ثم عمل بالمحاماة الشرعية حتى وفاته ، وقد خلفه فيها ابنه الأكبر : محمد خيرى ، وهو الأخ الأكبر الذى تحدث عنه كاتبنا كثيرًا ، وكان له من أمه أخ أصغر ، هو : أحمد المازنى . . وكان البيت الذى نشأ فيه يومئذٍ قريبًا من (عين الصيرة) وعلى بضعة أمتار من الطريق الممهد المرصوف الذى يخترق الصحراء بين الإمام ومسجد عمرو (١)

فى الكُتّاب .. ثم المدارس :

أُدخل « المازنى » الكتَّاب ، لكن مكثه لم يطل فيه ، لأن أمه أصرت على المدرسة . . فأخرجته من الكتَّاب ، وبعثت به إلى المدرسة . . التى يصفها بقوله (٢):

« أخرجتنى أمى من الكتَّاب وبعثت بى إلى مدرسة عجيبة الحال ، تمهيدًا لإدخالى مدرسة حكومية ، ذلك أنها كانت مدرسة بنات ، ولكنَّ فيها (فصلاً) واحدًا للصبيان ، وكانت صاحبة المدرسة (خيّاطة) ، ومن هنا كانت معرفة أمى بها ، وإرسالى إليها ، وكان يساعد هذه السيدة رجل قصير نحيف ، ولكنه غليظ الكبد . وكل ما أذكره أننا لم نكن نرى البنات أو

(١) د. نعمات أحمد فؤاد ـ المرجع سالف الذكر ـ ص ٥٠ ، ٥٦ .
(٢) المازنى ـ قصة حياة ـ ص ١٦ وما بعدها .

نختلط بهن ، بل كنا نُوضع فى حجرة ضيقة ، توصد علينا بالمفتاح ، فكانت هذه الحجرة هى المكان الذى نتلقى فيه الدروس ، وهى الساحة التى نلعب فيها ، وإليها يجيئنا طعامنا ظهرًا . وكنا إذا تركنا المعلم نزحزح الأدراج عن موضعها لنفسح مكانًا لنا ونحن نتقاذف الكرة أو نُجرى (البلى) على البلاط ، وما أكثر ما كسرنا زجاج النوافذ ، وغرم آباؤنا ثمنه . . » .

« وكان مساعد المديرة رجلاً فظًّا ـ كما قلت ـ إذا أخطأنا أو قصَّرنا يأمر الواحد منا أن يخلَعْ الطربوش ، ثم يضربه على رأسه العارى بالخيزرانة . وكنّا فى الفصل سبعة أو ثمانية ، فحدث يومًا أن أوسعنا ضربًا على رءوسنا ، فثرنا به من فرط الألم ، وتمردنا عليه ، وأشبعناه ركلاً وركلاً ، ومزقنا له سترته الطويلة ـ الإستانبولين ـ وخطفنا العصا من يده، وأذقناه وقعها على أصابع يديه ، وعلى ركبتيه ، ولا أحتاج أن أذكر أننا طُردنا ، وأَن المدرسة استغنت بالبنات الوديعات عن الصبيان الملاعين » .

« وبعد نحو أسبوع عرف أبى ما كان ، فلم يقل شيئًا ، وإنما ألحقنا بمدرسة أخرى فى شارع محمد على ، على مقربة من القلعة ، وتسمى مدرسة (القرشولى) . . وفى هذه المدرسة كان الضابط ـ وهو تركى ـ يجلدنا بالسوط، ولا نكران أنه كان يترفق بالصغار أحيانًا ، ولكن السوط كان فى يده ، وكان يكفى أن يلمسنا بطرفه . وقد بقيت بهذه المدرسة إلى آخر العام، واجتزتُ امتحانها ، ولكن صاحبها أَبَى أن ينقلنى إلى (فصل) أرقى، لأنى صغير السن ، فبقيت فى السنة الأولى عامًا آخر بلا موجب سوى حذلقة هذا المدير أو الناظر الذى استضأل جسمى ، واستصغر سنى، واستكثر عَلَيَّ السنة الثانية من أجل ذلك » .

وانتظم (كاتبنا) فى تعليمه حتى نال الشهادة الابتدائية . . ولم تكن تلك

الشهادة بالأمر الهين فى ذلك الوقت ، وفى ذلك يقول المازنى نفسه [١] :

« يمكن بسهولة أن تتصوروا حال التعليم الابتدائى إذا قلت : إن تلميذًا كان معنا فى المدرسة نال الشهادة الابتدائية فعين فى السنة التالية مدرسًا فى السنة الرابعة التى تعد لنيل الشهادة الابتدائية . وأبلغ من هذا فى الدلالة أنه كان يدرس لنا ما كان يسمى (الأشياء) ، وهى عبارة عن معارف عامة ، وكان تدريسها يومئذٍ باللغة الإنجليزية » .

ويقص علينا (كاتبنا) ما حدث على أثر حصوله على تلك الشهادة فيقول [٢]: « وأخذتُ الشهادة الابتدائية ، فقالت أمى : تذهب إلى المدرسة الخديوية ، وتقدم إليها طلب التحاق بها . ولكنْ أخى ـ وقريب لى ـ جاءا ليقنعا أمى بأن تقبل توظيفى ، فاستغربت ، وقالت : ولكنه طفل . قال قريبى : إن نفقات التعليم الثانوى كبيرة ، فمن أين تجيئين بها ؟ . وعزز أخى رأيه . وألح الاثنان عليها إلحاحًا شديدًا ، وهى تأبى وتقول إنها لا ترضى بذلك ، وإن ابنها يجب أن يتعلم ، وإنَّ أوان التوظيف وكسب الرزق لا يزال بعيدًا ، فأغلظ أخى لها فى الكلام ، وعنف معها قريبى ، فطردتهما وأمضت مشيئتها ، وأدخلتنى المدرسة . وقد بقيا زمنًا غير قصير لا يجترئان على دخول بيتنا ، ولكنها كانت تبعث بى إليهما لأزورهما ، وتوصينى ألاَّ أقطعهما ، وتقول إنه خلاف أدَّى إلى جفوة بينها وبينهما ، وقد فعلتُ ما تريد، وقواها الله عليه ، فلا مسوِّغ لبقاء النَّبْوَة ، ولا موجب لها على كل حال فيما بينى أنا وبينهما ، وهى لا تضمر لهما بغضًا ، ولكنها تخاف لعبهما ، ودخولهما مرة أخرى فيما لا يعنيهما ، فخير لى أن يبقيا بعيدين حتى أفرغ من التعليم » .

ونصل بعد ذلك إلى مرحلتى الدراستين : الثانوية والعالية . . فنجد أنه

(١) المرجع المذكور ـ ص ٦٣ .
(٢) المرجع المذكور ـ ص ٦١ .

قد مضى فيها غير متعثر ، بل انطلق يجتازها سنة فسنة بنجاح وتوفيق . ولم يقل لنا (كاتبنا) إنه كان متفوقًا على زملائه ، أو إنه كان من (الأوائل) دائمًا . . بل مضى يصف هاتين المرحلتين بأسلوبه الذى يجمع إلى حسن العرض، ولطافة المأخذ ، عمق النظرة ، وصدق التعبير ، وإنْ كان يميل إلى المبالغة ـ فى بعض الأحيان ـ فى كل ما يُظْهِرُ ضعفه ، وقصوره . .

ولنصحبه وهو يتحدث عن مرحلة الدراسة الثانوية ، حيث يقول عنها فى فصل يحمل عنوان : ذكريات مدرسية . . مقدمًا لحديثه بقوله [1]:

« سأكتفى بالمعالم الكبرى والخطوط الرئيسية التى تغنى عن التفاصيل ، ولست أرمى إلى غاية من هذا التصوير سوى ما يمكن أن يُستفاد من مقابلة عَهْدٍ بعهد ، ومواجهة ماضٍ بحاضر . . فمثلاً يمكن أن تتصوروا . . » .

ثم يمضى يتحدث عن دراسته بالمرحلة الثانوية فيقول [2]:

« كان التعليم الثانوى انتقالاً بأدق المعانى، فقد صار كل ما فى المدرسة إنجليزيًّا ـ الناظر والمدرسون والتعليم ـ ما عدا اللغة العربية .

وأنا إلى هذه اللحظة لا أعرف كيف كنت أنجح فى الامتحانات ، وأكبر ظنِّى أنهم كانوا يترفقون بنا ، ويعطفون علينا ، ويتساهلون معنا ، ويتركوننا ننجح على سبيل الاستثناء » .

وهذه بالطبع مبالغة من (كاتبنا) ـ كشأنه دائمًا فى إظهار ضعفه ـ وما نشك فى أنه إنما كان يجتاز امتحاناته بنجاح عن مقدرة وجدارة ، ويكفى أن نشير إلى مدى إتقانه للغتين الإنجليزية والعربية إتقانًا مذهلاً لننفى عنه ما يصف به نفسه من ضعف . . !!

(١) المرجع المذكور ـ ص ٦٣ .

(٢) المرجع المذكور ـ ص ٦٣ .

ونصل به إلى مدرسة المعلمين العليا . . ولكن قبل أن نجتاز معه عتبات تلك المدرسة نجد أنه مما يكمل الصورة ، ويبرز معالمها أن نعرف معه ـ ومنه ـ كيف مضت خطاه إليها ، فى حين كان يؤهل نفسه ويعدُّها لدراسة أخرى سواها . . كأن يكون طبيبًا ماهرًا ، أو محاميًا بارعًا ، ولنستمع إلى كلماته التى يسوقها فى بساطة محببة ، ومبالغة مشوقة [1].

« أدركتنى حرفة التعليم كما أدركتنى حرفة الأدب ، فبلائى عظيم ، ومصيبتى كبيرة ، وخَطْبى أَدْهَى من خَطْب ابن المعتز الذى لم تكن فيه ـ مثلى ـ لو ولا ليت ، وأنا أحمق منه بما قيل فيه ، وأحوج إلى إنْصاف الشعراء من ظُلم الحياة ، وكنت قبل أن أدخل مدرسة المعلمين العليا ـ فقد كانت هناك مدرسة أخرى (سفلى) ، أعنى دونها مرتبة ـ أشتهى أن أكون طبيبًا ، لأن الطبيب ليس كمثله أحد ، يقتل الناس ويأخذ كراء يده ، ثم إنِّى من مازن ، كما لا أحتاج أن أقول ، والطب كأنما هو فى طباعهم ، وكثيرون من أهلى أطباء، فلا حاجة بى إلى الغرباء حين يوافى الحين ، وقد اشتهر المَوازِنُ فى جاهليتهم بإتقان الجراحة ، وكان أحب الألعاب إلى أطفالهم أن يخرجوا إلى مخارم الجبال ويتربصوا وراء صخرها ، حتى إذا عبر الطريق عابر ، سالوا عليه ، وحفوا به ، وراحوا ينوشونه بالرماح القصيرة ، ويشكُّونه بالسيوف الصغيرة ويغمزونه فى المواضع الطرية ، فيتوثب ويقفز ويصيح : (أوخ . . آى . .) وهم يقهقهون مسرورين ، ولا يزالون يداعبونه ويجمشونه حتى يفتر عن الحركة المسلية والصياح الممتع ، فيدعونه إلى غيره ممن تقوده إليهم رجلاه .

ولكن الدكتور كيتنج ـ ناظر مدرسة الطب فى ذلك الوقت ـ طردنى ورمى لى أوراقى وقذف بى وراءها ، لأن نتن جثة أحدث لى إغماءً ، فوعدته أن

(١) إبراهيم عبد القادر المازنى ـ خيوط العنكبوت ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ ص ٢٨٣ : ٢٨٥ ـ فصل عنوانه : « فاتحة عهد » .

أسد أنفى ، فهز رأسه ، فتعهدت بأن أُرَوِّض نفسى على حب النتن والعفن، فلم يلن ، فخرجت بقلب كسير ، وقلت إذا فاتنى الطب فلن تفوتنى المحاماة ، فإن فى قومى مروءة وطول لسان ، وقديماً كان المَوَازِنُ أَهْلَ لَسَنٍ ونجدة، ومضيتُ إلى مدرسة الحقوق ، فأخذوا أوراقى وقالوا : حُبًّا وكرامة، وانقلبت إلى بيتى أنتظر موعد الدخول ، وإذا بالوزارة تزيد أجور التعليم فى هذه المدرسة من خمسة عشر جنيهًا فى العام إلى ثلاثين ، فقلت : يا خبر أسود ! وأسرعت إلى المدرسة فاستعدت أوراقى ، فما كان ذلك يدخل فى مقدورى . وأيقنت أنى ضائع ، وأن التعليم قد سُدَّتْ فى وجهى طريقه، وبكيت على صدر أمى ، وقلت لها قد ذهب مع الريح كل تعبك فى تعليمى.

ثم فتحت مدرسة المعلمين العليا فدخلتها وأنا أقول إن هذا على كرهى له أهون من هندسة مدرسة الهندسة » .

وانتظم فى دراسته فى مدرسة المعلمين العليا ، يدرس اللغة الإنجليزية وآدابها . . وما نعتقد إلاّ أنه كان يأخذ تلك الدراسة بجدية تامة ، تدفعه إلى ذلك أمور عدة ، لعل أهمها رغبته فى إنجاز الدراسة فى مدتها المحددة دون تأخر ، ومنها أيضًا إجادته للغة الإنجليزية ، وتطلعه إلى مزيد من الإجادة لها والتعمق فيها ، باعتبارها أداته فى الاطلاع على ثقافة الغرب ـ بصفة عامة ـ ووسيلته فى دراسة الأدب الإنجليزى ـ بصفة خاصة ـ ومنها ـ كذلك ـ ما كان سائدًا فى ذلك الوقت من أخذ الأمور كلها بجدية تامة ، وبخاصة من أبناء الطبقة الوسطى الذين كانوا يتطلعون لأدوار القيادة والريادة فى مجتمع جديد .

وقد تحدث (كاتبنا) عن هذه الفترة من حياته كما تحدث عن سواها . . . فقال يحكى عن ذكرياته عن الشيخ حمزة ـ وغير ذلك من الذكريات ـ فقال :

« ولكنه ـ أى الشيخ حمزة ـ فى مرة أخرى كاد يُضيّع علىّ سنة . وكنت طالبًا فى مدرسة المعلمين ، وكانت لجنة الامتحان فى اللغة العربية برياسته ، فقال أحد إخوانى بعد خروجه من الامتحان : إن الشيخ حمزة يفتح كتاب النحو والصرف ويطلب من الطالب أن يتلو الفصل الذى يقع عليه الاختيار، ولم نكن ندرس نحوًا ولا صرفًا فى المدرسة ، لأن الدراسة كانت مقصورة على الأدب ، فأيقنا بالفشل . وجاء دورى ، فدخلت وأنا واثق من الرسوب ، وجلستُ أمامه ، وناولنى كتاب مقدمة ابن خلدون ، فقرأت ، ولا أزال أذكر فاتحة الكلام وهى : اعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهبٌ بآمالهم فى تحصيلها . . إلخ . فقال : ضع الكتاب . فوضعته ، فسألنى عن العدوان والفعلين عدا واعتدى ، وانتقلنا إلى الصيغ المختلفة التى يكون عليها الفعل (اعتدى) مثل (اعتديا) للماضى المثنى ، و(اعتديا) للأمر ، فسألنى لماذا كان الماضى بالفتح والأمر بالكسر ، فلم أعرف لهذا سببًا ، وقلت : إنه لا سبب هناك سوى أن العرب نطقوا بها هكذا ، فدهش لهذا الجواب وقال : ولكن لهذا سببًا ، قلت : إن اللغة سبقت النحو والصرف ، وكل هذه القواعد موضوعة بعدها ، وما دمت أنطق كما كان العرب يفعلون فإن هذا يكفى ولا داعى للبحث عن سبب مُخْتَلَق . فغضب وظهر هذا على وجهه، فلم أبالِ بغضبه ، وحدّثتُ نفسى أنه خير لى وأكرم أن أسقط بخناقة من أن تكون علة سقوطى الجهل . وأصررتُ على رأيى ، وكاد يحدث مالا يُحمد ، لولا أن المرحوم الشيخ شاويش ـ وكان عضوًا فى اللجنة ـ تدارك الأمر ، فقد نظر فى ساعته ثم التفت إلى الشيخ حمزة وقال : العصر وجب يا مولانا . فنهض الشيخ وهو يقول : أى نعم ، وذهب للصلاة ، ونسينى فكان فى هذا نجاتى ، وقد حفظت هذا الجميل للشيخ شاويش ، وكانت هذه الحادثة بداية علاقتى به .

ولم تكن المواد كثيرة أو طويلة فى مدرسة المعلمين ، ويكفى أن أقول إنه

كانت لنا فى الأسبوع ثمانى ساعات لا نتلقى فيها أى درس ، فترك هذا التخفيف وقتًا كافيًا للمطالعة الخاصة . . وكان أساتذتنا وناظرنا يشجعوننا عليها بكل وسيلة ، ولا يفوتهم مع التشجيع والحث أن يوجهونا وينظموا لنا الأمر ، وأحسب أن هذا نفعنا جدًّا » .

المازنى مدرسًا :

تخرج المازنى فى مدرسة (المعلمين العليا) فى سنة ١٩٠٩م - أى أنه كان ابن عشرين عامًا - وهى سن صغيرة بالنسبة لمن يصبح - كما أصبح المازنى - مدرسًا للترجمة فى مدرسة السعيدية الثانوية . . ولنستمع إليه وهو يتحدث عن أُولَى تجاربه فى هذا الصدد (١) :

« ومضت الأيام - أعنى الأعوام - وصرتُ معلمًا ، وتسلمتُ من الوزارة الشهادة لى بذلك ، ولكنى لم أفرح بها ، لأن ذلك كان بكرهى ، كما صار من لا أذكر اسمه فى رواية لموليير طبيبًا على الرغم من أنفه ، فعينتنى الوزارة مدرسًا للترجمة بالمدرسة السعيدية الثانوية ، وكنت صغيرَ السن ، ولم تكن لى لحية ولا شارب ، فكنت أحلق وجهى بالموسى ثلاث مرات فى اليوم لعل ذلك يعجل بإنبات الشعر ، فقد اشتهيتُ أن يكون لى شارب مفتول وخدان كأنما سقيا عصير البرسيم ، ولكن الموسى لم تُجْدِنِى فتيلاً .

ومع ذلك ، فقد كان المازنى (معلمًا) ناجحًا ، محبوبًا ، ذا مهابة ومكانة بين تلاميذه ، فقد كان له من قوة الشخصية ، ما استعاض به عن قِصَرِ القامة ، وَضَآلَة الحجم ، بل ما أغناه عن استعمال الشدة ، أو الالتجاء إلى العقاب . . وهو نفسه يحدثنا عن ذلك فيقول (٢): « . . وقد صرتُ معلمًا بعد ذلك ، وظللتُ أشتغل بالتعليم عَشْرَ سنين، خمسًا منها فى الوزارة وخمسًا فى المدارس الحرة ، ولم يقصِّر التلاميذ فى محاولة المعاكسة ، ولكنى كنت حديث عهد بالتلمذة وبشقاوة التلاميذ ، فكنت أعرف كيف أقمع هذه الرغبة الطبيعية فى الشقاوة ، وكانت طريقتى أن أتجاوز عن الذى لا ضير منه ، فلا أشغل به نفسى والتلاميذ ، مثال ذلك أن يحتاج التلميذ إلى قلم أو نشافة فيطلبها من جاره ويكلمه فى ذلك ، فلا أعدُّ هذا الكلام الذى لا يباح ، ولا أقيم ضجة من أجله . وقد حدث يومًا وأنا مدرس فى المدرسة الخديوية أن دخلت فرقة فألفيتُ على مكتبى كل أدوات الرياضة مرصوصة على نحو لا شك أنه مُتَعَمَّد ، وكان تلاميذى لا يجهلون كرهى للرياضة ، وكنت أنا لا أكتمهم أنِّى أعد نفسى جاهلاً بها ، حمارًا فى علومها ، وكان غرضهم من رصِّ هذه الأدوات أن يُعابثونى عسى أن أثير الضجة التى يشتهونها ولا يفوزون منى بها ، ولكنى لم أفعل ، بل اكتفيتُ بأن دعوتُ الفرَّاش فَحَمَل هذه الأدوات ووضعها فى مكانها ، ثم بدأ الدرس . . . » .

« وفى آخر سنة من اشتغالى بالتدريس توليتُ أمر مدرسة ثانوية ، فقلت للأساتذة : إننى ألغيتُ العقوبات جميعًا ، فلا حبس ، ولا عيش حاف ، ولا شىء مِمَّا اعتاد المعلمون أن يعاقبوا به التلاميذ .

ونظريتى هى أن المدرس الذى يحتاج إلى معاقبة تلميذه لا يصلح لهذه المهنة ، وخيرٌ له أن يشتغل بغيرها . وأن العلاقة بين المعلم وتلميذه ينبغى أن تقوم على المودة والاحترام ، وأن يكون أكبر وأقوى عامل فيها هو شعور التلميذ بأن المدرس والد له ، يبغى له الخير ، ويخدمه ، ويفتح له نفسه ، ويقوِّى مداركه ، وينمِّى استعداده ، وأنه لا يُلْزمه بدرس ، ولا يفرض عليه شيئًا ، بل يرغِّبه فى الدرس ، ويحبِّب إليه التحصيل .

وعلى هذا فليس لأحد من المعلمين أن ينتظر منِّى معونة على ضبط

(١) إبراهيم عبد القادر المازنى - المرجع سالف الذكر - ص ٢٨٥ : ٢٨٨ .

(١) إبراهيم عبد القادر المازنى - قصة حياة - المرجع المذكور - ص ٦٧ وما بعدها .

النظام، وقد كان . قضينا فى هذه المدرسة سنة كاملة لم يشعر فيها التلاميذ بسلطان أو سطوة ، وإنما شعروا أنهم أبناءٌ لنا وأننا إخوان كبار لهم وأصدقاء نافعون .

ولم أكتفِ بهذا ، بل ألغيت (الجرس) الذى يدق إيذانًا بابتداء الدرس أو انتهائه ، لأنى لم أرَ حاجة إليه بعد أن أصبح التلاميذ يحرصون على الحضور والمواظبة من تلقاء أنفسهم ، وبدافع من حبهم للمدرسة ورغبتهم فى الوجود بها مع إخوانهم المدرسين ، حتى لقد كان الواحد منهم يمرض فيحضر ، وبهذا استغنيت أيضًا عن الدفاتر الكثيرة التى تستعمل فى المدارس ، والتى تحتاج إلى موظفين كثيرين لا داعى لهم .

وقد كنت أحبُّ أن أظل فى هذه المدرسة لأرى نتيجة التجربة ، ولكن الحركة الوطنية بدأت فى صيف ذلك العام ، وجرفنا جميعًا تيارها الزاخر ، فهجرت التعليم إلى الصحافة . ولو عدت إليه الآن لكان من المحقق أن أخفق ، فقد اختلف الحال جدًّا وانقلبت الأوضاع » .

فقد عمل المازنى خمس سنوات مدرسًا فى مدارس الحكومة (وزارة المعارف) ثم استقال بعد ذلك ليعمل خمس سنوات أخرى فى المدارس الأهلية . . وذلك كما روى هو نفسه . فقد كتب فى رسالة بعث بها المازنى إلى أحمد عبيد استجابة لطلبه لينشرها فى كتابه (مشاهير شعراء العصر) - حيث ذكر فيها عن فترة عمله بالتدريس (١):

« تخرجت فى مدرسة المعلمين الخديوية العالية سنة ١٩٠٩م ، وعينتنى وزارة المعارف مدرسًا للترجمة فى المدرسة السعيدية الثانوية ، ثم الخديوية

(١) نص هذه الرسالة منشور فى كتاب : أعلام الأدب المعاصر فى مصر - ٢ - إبراهيم عبد القادر المازنى - للدكتورين : حمدى السكوت - ومارسدن جونز .

الثانوية ، ثم مدرسًا للغة الإنجليزية بمدرسة المعلمين الناصرية ، ثم طلبت الإقالة فى سبتمبر ١٩١٤م بعد قيام الحرب الكبرى بشهر فرارًا من اضطهاد وزير المعارف يومئذ ، وكان صديقًا لحافظ إبراهيم الشاعر الذى انتقدته ، واشتغلت مدرسًا للترجمة والتاريخ بالمدرسة الإعدادية الثانوية ، ثم بوادى النيل ، ثم عُينت ناظرًا للمدرسة المصرية الثانوية ، ولمّا قامت الحركة الوطنية المصرية طلقتُ المدارس وانصرفت إلى السياسة ، ومازلت إلى هذه الساعة مُحَرِّرًا بجريدة الأخبار بالقاهرة » .

المازنى صحفيًا :

عندما استقال المازنى من عمله فى التدريس ليتفرغ لقلمه وعمله الفكرى، فقد اختار لنفسه بذلك الطريق الذى ييسر لموهبته أن تثمر ، ولفكره أن يتحرر ، ولإبداعاته أن تنطلق إلى أقصى مدى .

والواقع أنه عندما اتجه - بكليته - إلى الصحافة لم يكن يرتاد طريقًا جديدًا عليه ، بل كان يمضى فى ذات السبيل الذى عرفه وارتاده منذ أن كان طالبًا بالمعلمين العليا ، يراسل بعض الصحف التى تنشر له ما يوافيها به من قصائد شعرية ، ومقالات نثرية تحمل الصورة الأولى للمازنى - الأديب الناشىء - وقد واصل السير فى ذات الطريق بعد أن عمل فى التدريس ، لم تنقطع إبداعاته عن الصحف طوال السنوات العشر الأولى من حياته العملية التى جمع فيها بين التدريس والكتابة الصحفية . . ففى هذه الفترة التى امتدت حتى سنة ١٩١٩م كانت قصائده ومقالاته تنشرها صحف عديدة منها : الدستور ، والجريدة ، والبيان ، وعكاظ الأسبوعية ، والأفكار ، ووادى النيل ، والأهالى (١).

(١) دكتور محمود أدهم : إبراهيم عبد القادر المازنى - بين التاريخ والفن الصحفى - ١٩٩١م - مكتبة الأنجلو المصرية - ص ٩١ .

بل إن دراساته الأولى قد نُشرت على صفحات تلك الصحف فى هذه الفترة ، ومنها مقالاته وأبحاثه عن : الأساليب الكتابية ، والشعر والشعراء ، وشوقى ، وحافظ ، والعقاد ، وابن الرومى ، وشعر حافظ إبراهيم . . وذلك فضلاً عن العديد من المقالات التى تناولت نواحِىَ اجتماعية مختلفة .

ولكنه إذ استقال وتفرغ للصحافة ، فقد ظل لفترة قصيرة يكتب لصحف ومجلات متعددة ، إلى أن استقر فى جريدة الأخبار التى أصدرها ورأس تحريرها أمين الرافعى ، وظل يعمل بها ردحًا من الزمن أُثِرَ عنه فيها جولات أدبية وسياسية ملحوظة العناية ، محفوظة القَدْرِ فى سِجلِّ الحركة الوطنية والأدبية على السواء[1].

ومع أن مدة عمله متفرغًا بالأخبار كانت محدودة ، فإنه قد نشر بها حوالى ٥٠٠ مقالة على مدى حوالى ٥٢ شهرًا ، أى : أربعة أعوام وأربعة أشهر . . وقد بدأت هذه المقالات بمقالته التى نشرها ٢٣/ ١٢/ ١٩٢٠م، والتى كان عنوانها : (ينادون فى الظلام : حطموا الأقلام) ، وانتهت بمقالته التى نشرها فى ٢٩/ ٤/ ١٩٢٥م ، والتى كان عنوانها (الجامعة الأميرية ورؤساء أقسامها) . . نعم حوالى ٥٠٠ مقالة ، غير المترجمات والتعليقات والردود على بعض القراء . . وإن أهم ما يميز هذه الكتابات عن تلك المتصلة بالمرحلة السابقة أن النمط السياسى منها ، ثم النمط المجتمعى ، كان لهما وجودهما القوى . . وحتى هذه المقالات السياسية فإنها لم تقتصر على القضية المصرية فقط ، وإن كان من الطبيعى أن تكون لها الغلبة على ما عداها ، وإنما تناولت موضوعات عديدة فى السياسة العالمية والعربية ،

(١) د . إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ـ ص ٢١٨ .

وهاجمت الاستعمار ـ خاصة الإنجليزى ـ فى أى مكان . . بل إنه على صفحات هذه الجريدة الوطنية الكبرى ، بدأت مقالات الرجل التى تتناول قضية السودان ، ووحدة وادى النيل ، ومحاولات إنجلترا فصله عن مصر، وكذا التفرقة بين الشعبين ، وهى المقالات التى عبّرت عن اهتمام أصيل عنده بالسودان الشقيق ، لم يتخلّ عنه طوال حياته . . على أن ذلك كله لم يمنعه من طَرْقِ موضوعات أخرى عديدة ، مثل : الهجوم على سعد زغلول ، وتناول حرية التعبير . كما لم يكن ذلك أيضًا على حساب كتاباته المحورية أو الأساسية ، فى الأدب والنقد ، أو دراساته الأدبية والفلسفية . . ونقول إن عددًا لا بأس به من مقالاته النقدية والذاتية (التى نُشرت فى هذه المرحلة) قد أُعيد نشرها فى كتابه الأشهر : (حصاد الهشيم) [1].

على أنه فى المرحلة التالية لم يشأ أن يقصر مجال عمله ، وما ينشره من إبداعات فى مجلة أو صحيفة واحدة . . حتى لقد كانت كتاباته تنشر فى أكثر من عشرين صحيفة ومجلة ، بين كبيرة ومتوسطة وصغيرة ، سياسية ومجتمعية وأدبية وفنية . . وكأنه يقول : إنى هنا . . لقد ظهرت كتاباته ـ خلال الفترة منذ منتصف عام ١٩٢٥م وحتى قيام الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩م على صفحات : الكشاف ، واللواء المصرى ، والاتحاد ، وروزاليوسف ، والزهراء ، والجديد ، ومصر المصورة ، والدنيا المصورة ، والمصور ، وكل شىء ، وأبولُّو ، والجامعة ، والأسبوع ، والمجلة الجديدة ، وشهر زاد ، والوادى ، ومجلتى ، والشباب ، والجهاد ، والراديو المصرى ، والسياسة ، والسياسة الأسبوعية ، والبلاغ ، والرسالة . . وأهم ما يمكن تقديمه من ملاحظات تتناول هذه المرحلة أنها شهدت كذلك غلق الكتابة

(١) د . محمود أدهم ـ المرجع سالف الذكر ـ ص ٩٦ : ٩٨ .

السياسية ، ثم النقدية ، وتليها تلك المتصلة بالأنماط الأقرب إلى الأدب ، والأدب الصحفى ، لاسيما المقالات القصصية والفكاهية ، والصور القلمية[1].

ولعلنا نخص بالذكر جريدة السياسة ، والسياسة الأسبوعية . . فقد بدأ نشر مقالاته بالسياسة الأسبوعية أولاً ، ثم ظهرت مقالاته بعد ذلك فى نهاية يوليو عام ١٩٢٨م فى الشقيقة الكبرى ـ السياسة ـ واستمرت مقالاته بها . . حتى لقد بلغ ما نشر له فى السياسة الأسبوعية (٨٩) مقالة عامة وصورة قلمية أُعيد نشر بعضها بعد ذلك فى كتابه (صندوق الدنيا) ، فى حين استمرت كتابته فى السياسة حتى عام ١٩٣٣م ، وقد وصل عدد ما نُشر له بها حوالى أربعين مقالة . . وفى هذه الفترة ذاتها كان يكتب أيضًا فى مجلتى : الجديد والهلال [2].

وتأتى بعد ذلك المرحلة التى يسميها الدكتور محمود أدهم بمرحلة (النُّضج والخصوبة) [3]، حيث يصفها بأنها المرحلة الأخيرة من حياته عامة، ومن حياته الصحفية ـ بصفة خاصة ـ تلك التى تبدأ منذ نهاية الثلاثينيات وحتى وفاته عام ١٩٤٩م . . أى أنها فى عمر الزمن وبمقياسه حوالى عشرة أعوام أو تزيد قليلاً ، وفى عمره القلمى الأدبى والصحفى معًا ، هى مرحلة النضج والاستقرار والثبات بكل ما يتصل بها من خبرات ، وما تجمَّع داخل حدودها من نتائج التجارب العديدة ، وحصاد السنين والمعرفة معًا . . وكان نتاجه ـ خلالها ـ يسير فى الجانبين معًا : جانب الأدب ، والأدب الصحفى ، مع عناية خاصة بالجانب الثانى ، وبشكل غير

(١) د . محمود أدهم ـ المرجع المذكور ـ ص ١٠٠ .

(٢) د . محمود أدهم ـ المرجع المذكور ـ ص ١٠٥ .

(٣) د . محمود أدهم ـ المرجع المذكور ـ ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

مسبوق ، ونشاط غير مسبوق أيضًا . . فقد كان يُحسن الاختيار لوسائل نشر هذين النشاطين ، فيختار للمادة الأدبية ما يناسبها من صحف أسبوعية ، ومجلات، وللمادة الصحفية ما يناسبها . وكان من أبرز أنماط نتاجه فى هذه الفترة المقالة الافتتاحية ، ثم مقالة الخواطر والتأملات ، وتلك المجتمعية . . أما أهم الصحف والمجلات التى شهدت كتابته ، وحملت نتاج قلمه إلى القراء فى تلك الفترة فهى : البلاغ ، والهلال ، والرسالة ، والمصور ، والأهرام ، والاثنين ، والدنيا ، وأخبار اليوم ، والأساس ، والجيل الجديد ، والدستور ، والعزيمة، والمقتطف ، وروزاليوسف ، والمواهب ، ومسامرات الجيب ، والكتاب .

ونضيف إلى ذلك أنه قد نشر لفترة فى صحيفة (الإخوان المسلمون) . . وقيل إنه ودَّع الكتابة بها لما لاحَظَه من إسرافهم فى عداواتهم ، وغلّوهم فى حرب خصومهم الفكريين ، لاسيما حين حرقوا كتب العلم الإنجليزية ، فقد اعتبر ذلك تعصبًا لا يتفق ورسالة الإسلام التى تدعو للعمل وتدفع إليه[1].

ولا نختتم هذه الفقرة قبل أن نشير إلى فترة كتابته بانتظام فى (أخبار اليوم)، ثم (الأساس) حتى وفاته . . فمنذ صدور أخبار اليوم وهو يتابع الكتابة فيها أسبوعيًا ، وعلى أثر صدور الأساس ـ لسان حال حزب السعديين ـ فقد ظل يتابع الكتابة فيها على نحو منتظم ، ومع ذلك فـ « إن كتاباته على صفحاتها لم تكن حزبية الطابع بالمعنى المفهوم ، وإنما كانت سياسية عامة . . كانت تعنى بالقضية المصرية بصفة عامة من خلال المصلحة القومية العليا ، وذلك بصرف النظر عن الحزبية والأحزاب ، أو

(١) د . إبراهيم عبده ـ تطور الصحافة المصرية ـ ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

النظرة الضيقه التى تتجه إلى الأمور من خلالها فقط . . بل لعل من أبرز ما يلفت أنظار المتابع هنا هو مواصلة كتاباته لا من منطلق مصرى فقط ، وإنما من منطلق عربى أيضًا ، وهو فى ذلك يتحدث عن الواقع العربى ومشكلاته ، لاسيما ما اتصل بموضوعات السودان والقضية الفلسطينية ، وغيرهما» (١).

ذلكم هو المازنى صبيًّا ، ثم فتىً يافعًا ، فى مسيرة حياته التى لم تكمل ستين عامًا ، وتلك هى المجالات التى ارتادها : طالبَ علم ، ثم مدرسًا ، يجمع بين التدريس والكتابة إلى الصحف ، إلى أن يتفرغ للقلم مع قيام ثورة ١٩١٩م فينذر له نفسه ، ويظل ولا هَمَّ له إلاَّ الكتابة والإبداع ، فى حياة لا عمل له فيها إلاّ الاشتغال بأمور الفكر ، مدافعًا عن الوطن ، مشغولاً بشئونه وشجونه ومشاكله دون أن ينسيه ذلك إبداعاته الرائدة فى عوالم النقد والشعر والأدب بصفة عامة ، والأدب القصصى والصور القلمية بصفة خاصة ، وذلك على النحو الذى نحاول أن نرسم صورة لملامحه فى الصفحات التالية .

***

(١) د . محمود أدهم ـ المرجع سالف الذكر ـ ص ١١١ ، ١١٢ .

الفصل الثانى

المازنى وعالمه النثرى

المازنى ناثرًا :

فى مقدمة كتابه (حصاد الهشيم) كتب المازنى يقول :

« أيها القارىء :

هذه مقالات مختلفة فى مواضع شتَّى كُتبت فى أوقات متفاوتة ، وفى أحوال وصروف لا علم لك بها ولا خبر على الأرجح . . ولست أدَّعِى لنفسى فيها شيئًا من العمق أو الابتكار أو السداد ، ولا أنا أزعمها ستحدث انقلابًا فكريًّا فى مصر ، أو فيما هو دونها ، ولكنِّى أقسم أنك تشترى عصارة عقلى ، وإنْ كان فَجًّا ، وثمرة اطلاعى وهو واسع ، ومجهود أعصابى وهى سقيمة بأبخس الأثمان . . ! » .

« أما أنا ، فمن يردّ إلىّ ما أنفقتُ فيه ؟ من يعيد لى ما سلخت فى كتابته من ساعات العمر الذى لا يرجع منه فائت ، ولا يتجدد كالشجر ، ويعود أخضر بعد إذ كان أصفر ، ولا يرقّع كالثياب أو يُرْفَى ؟ » .

« وفى الكتاب عيب هو الوضوح ، فاعرفه ! وستقرؤه بلا نَصَب ، وتفهمه بلا عناء ، ثم يُخيل إليكَ من أجل ذلك أنك كنت تعرف هذا من قبل ، وأنك لم تزد به علمًا ! فرجائى إليك أن توقن من الآن أن الأمر ليس كذلك ، وأن الحال على نقيض ذلك ! » .

وهذه الكلمات تحمل تاريخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

وفى مقدمة كتابه (قبض الريح) يردد كلمات سليمان الحكيم : « أنا الجامعة . . كنت ملكًا على إسرائيل فى أورشليم ، ووجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السماوات . . فإذا الكل باطل ، وقبض الريح . . ! » .

ثم يقول : « وأنا أيضًا كالجامعة ، وجهت قلبى إلى المعرفة ، وامتحنتُ نفسى بالسؤال ، وعللت روحى بالتفتيش - بنيت لنفسى (آمالا) ، غرست لنفسى (أوهامًا) ، عملت لنفسى جنات وفراديس غرست فيها (أحلامًا) ، من كل نوع ثمر . . وهذا كان نصيبى من تعبى . . قبض الريح ! » .

« واستنفد العناء مجهودى كما تنفد السحابة أراقت ماءها على الأرض . وكلٌ بما عنده يجود ! زرعت حَصًى فى أرض صفوان ، وهذا حصادى ، وقبضت الريح من كل تعبى تحت الشمس ، وهأنذا أؤديها إلى القارىء ، وأطلقها عليه كما تلقيتها لو يقنع الطالب المدل ! وقد خرجت كما سيخرج القارىء ، وكما سنخرج جميعًا من هذه الدنيا ، وليس فى يدى شىء !» .

سطور تتفق فى مجملها على معانٍ لا يفتأ المازنى يرددها : فحب المعرفة ، والجهد المتصل لتحصيلها ، وبذل حصيلتها فى سخاء وأريحية للقارىء . . تلك جميعها هى السمات البارزة فى حياته ، والطريق الذى انتهجه أداءً لرسالته أديبًا ومفكرًا ومبدعًا .

والمازنى - كما ذكرنا - قد ابتدأ حياته شاعرًا نذر نفسه لعالم الشعر ، مؤصِّلاً لمنهج جديد فى الشعر الصادق النابع من أعماق النفس ، ثم مبدعًا فى نفس الوقت لأشعار لم تجد حتى اليوم من يبرزها ويوفيها حقها ، ويكشف عَمَّا انطوت عليه - وضمنه - من كنوز وذخائر . . نقول ذلك وتحت ناظرينا الدراسات الأصيلة التى أشرنا إليها ، والتى دارت حول أشعار

المازنى . . وإن كنا أعلينا من شأن تلك الدراسات إلاّ أننا ما زلنا نرى أن إبداع المازنى الشعرى ما زال فى حاجة لجهود أخرى تُبذل ، وأنه لجدير بالعديد والعديد من الدراسات التى تتناوله من مختلف جوانبه الثرية الموحية .

وإذ ترك المازنى الوظائف واتجه إلى الصحافة ، فقد تغيَّر مساره ، بعد أن تفرغ لقلمه كاتبًا ومفكرًا ، متخذًا من الصحافة مجالاً لنشر ثمار فكره ، ليختار مِمَّا ينشر - من بعد - فصولاً تضمها بعض كتبه . . وهنا نلقى المازنى - الكاتب المتميز - بعد أن لقينا المازنى الشاعر المبدع .

وفى مجال الكتابة المنطلقة ذهب المازنى مذاهب شتَّى ، وقد كانت ثقافته العميقة تمدُّه بزاد لا ينفد من الأفكار ، وكان عقله الوثّاب يفتح أمامه مجالات للكتابة جديدة غير مسبوقة ، وكانت نظراته العميقة وما فُطِرَ عليه من حب للتأمل ، وميل للتعمق ، يضفيان على ما يكتب أصالةً وعمقًا وتجددًا ، وأخيرًا - بل أولاً - كانت مواهبه الأصيلة تدفعة لمزيد من الإبداع ، وتضفى على ما يقدم لقرائه جاذبية شديدة ، بما أُوتى من رقة العبارة ، ودقة التعبير ، مع نزعة أصيلة إلى السخرية الحانية ، التى وُصفت بأنها سخرية تنبّه دون أن تجرح ، وتدلّ على مواضع النقص والعيب فى سماحة ولطف دون أن تؤذى أو تفضح .

وإذ نريد الآن أن نتحدث عن المازنى الناثر ، أو عن (إبراهيم الكاتب) - مستعيرين منه عنوان أشهر رواياته - فإننا نجد أنفسنا فى حيرة : فمن أين تكون نقطة البداية ؟ وعن أى الجوانب نتحدث ؟ وهل ترك من سبقونا مجالاً يمكن لنا أن نتحدث فيه عن المازنى بعد أن كتب عنه كل من سبقونا من كُتّاب وباحثين ؟

ونبدأ بالسؤال الأخير ، فنقول : بل بقى الكثير والكثير . . ومهما كتبنا

ـ وكتب غيرنا ممن سبقونا إلى الكتابة عن المازنى ، وممن سوف يلحقون بركبه دارسين ـ فسوف يظل مجال الكتابة عنه ثريًّا خصبًا ، يجد فيه كل كاتب بُغيته ، يستلهم المازنى حياةً وفكرًا ، أو يعرض لدراسته ، مادحًا أو قادحًا .. على أن نتذكر دائمًا هذه الفقرة التى صاغها المازنى برشاقة فى تقديمه لكتابه (حصاد الهشيم) مخاطبًا قارىء الكتاب :

« واعلم أنه لا يعنينى رأيك فيه .. نعم ، يسرنى أن تمدحه كما يسر الوالد أن يُثنِىَ على بنيه ، ولكنه لا يسوؤنى أن تبسط لسانك فيه ، إذْ كنتُ أعْرَفَ بعيوبه ومآخذه منك . وما أخْلَقَنِى بأن أضحك من العابثين ، وأن أُخرج لهم لسانى إذْ أراهم لا يهتدون إلى ما يبغون وإن كانت تحت أنوفهم .. ! » .

وبعـد :

فكيف يسير بنا الحديث فى هذا الفصل وقد أوقعنا المازنى فى حيرة بتعدد ما ارتاد من مجالات ، وبكثرة ما اتصفت به كتاباته من مُمَيِّزِ السمات ، وبوفرة ما خلَّف من آثار مبعثرة ، إنْ أمكن الاهتداء إلى بعضها ، فما تزال الكثرة منها مطويةً فى بطون صحف يتعذر الوصول إليها ، فضلاً عن حصرها ونشرها ؟

ليس أمامنا سوى الاختيار والاجتزاء .. فما نزعم أن لدينا الطاقة ـ أو المقدرة ـ لتناول ذلك كله .. بل ما نزعم أننا فيما سوف نختاره من مواضيع سيكون فى وسعنا أن نوفيها كامل حقها ، أو نتناولها من مختلف جوانبها .

المازنى كاتبًا متميزاً :

عرفته الصحافة ـ أول ما عرفته ـ شاعرًا مبدعًا ، كما عرفته صاحب دعوة جديدة فى الشعر ، يوجه نقده اللاذع إلى شعراء عصره ، وقد خصَّ منهم بنقده شاعرًا كبيرًا ذا شهرة عريضة بين شعراء مصر ، هو : حافظ إبراهيم .

ثم عرفته الصحافة كاتبًا يوافيها فى بعض الأحيان بمقالات عن بعض النواحى الأدبية ، فتبادر إلى نشرها .. ثم عرفته بَعْدُ كاتبًا متفرغًا لها ينشر فيها مقالاته ، بل ويتولى إصدار بعضها ، ورئاسة تحرير بعضها الآخر ، ومن ثَم تعددت مجالات كتاباته ، فما كان له أن يقصرها على الأدب : شعرًا ونثرًا ، بل كان عليه أن يتناول مختلف الشئون ، ويرتاد العديد من المجالات السياسية والاجتماعية .

ولاشك أن الصحافة كان لها تأثيرها ـ ليس على أسلوب المازنى ـ وإنما فى اختياره لمفرداته اللغوية التى يستعملها للتعبير عن أفكاره وآرائه .. نعم .. فقد غيَّرته الصحافة ، أو غيَّر هو من أسلوبه ليتلاءم مع وسيلة النشر ـ صحفًا أو مجلاّت ـ لا تقتصر قراءتها على الخاصة ، وإنما تصل إلى مختلف الأوساط ، ولابد لمن يريد أن يصل خطابه إلى جميع القراء أن يختار العبارة المُيَسَّرَة ، والألفاظ الشائعة ، ويتحاشى كل ما هو مهجور غير مطروق ، سواء فى تركيب الجُمَل أو فى اختيار اللفظ .

وليس معنى ذلك أن المازنى كان لا يتحرَّى الجمال فى صياغة مقالاته ، أو كان يهبط إلى مستوى العامية ، أو لا يحرص على سلامة اللغة .. بل استطاع فى يُسر وبساطة أن يصل إلى حل هذه المشكلة بأن يوازن بين الحفاظ على جمال اللغة ـ التى وُصفت بأنها اللغة الشاعرة ـ وبين مراعاته مستوى القراء من مختلف الأوساط [1] .

وقد نجح المازنى فى هذه الموازنة نجاحًا غير مسبوق ، ولعل لطبيعته السمحة السخية أثرها فى هذا النجاح ، فقد راح يصوغ مقالاته فى أسلوب سلس ورقيق ، وإنْ ظَلَّ متساميًا إلى الجمال ، محافظًا على روعة التعبير .

(١) هذا هو وصف الأستاذ العقاد للغة العربية ، وهو فى ذلك الوقت عنوان لأحد مؤلفاته الذى اختار له «اللغة الشاعرة» عنوانًا وموضوعًا .

وكان حرصه الأكبر ـ فضلاً عن سلامة التعبير ، وروعة الصياغة ـ على تحرّى الوضوح فى الإبانة عَمّا يريد قوله ، والإفصاح فى بساطة عن المعانى التى يطرحها على قارئه . . فهو لا يعرف الغموض أو الإبهام ، ولا يلجأ إلى الرمز والإلغاز ، بل يعمد إلى التعبير المباشر ، والقول الصريح ، وما كثرة الجمل الاعتراضية فى أسلوبه إلاّ لهذا الحرص على زيادة الإيضاح ، وعلى تحاشى أدنى احتمال للخلط أو للخطأ .

وقد قيل بإنه كثيرًا ما يستطرد فى حديثه ، وينتقل من موضوع إلى موضوع، وهو قول يحتمل عدة أوجه ، منها ما قد يحمل على محمل سيىء ، إلاّ أننا نرى ـ وبحق ـ أن هذا الاستطراد ما هو إلاّ إحدى مزايا المازنى ، ولا يمكن اعتباره من معايب أسلوبه ، فهو فى كل ما يكتب لا يحيد عَمّا يقصد إليه ، ولا ينسى أبدًا الغاية التى ينشدها ، وما الاستطراد عنده إلاّ رغبة منه فى استيفاء مختلف جوانب الموضوع الذى يتناوله . . وهو ـ بعد ـ يعتبر القارىء صديقه، وما يعيب حديث الصديق أن يتوقف فى بعض المواضع ليروى قصة عارضة ، أو رأيًا خطر له ، فلم يشأ أن يتركه يفلت منه ـ أو من صديقه ـ ليعود بعدُ إلى ما بدأ به حديثه . ثم إن ذلك هو نهجه الذى تميز به، والذى كان ـ ولاشك ـ من الدواعى التى ربطت بينه وبين قُرائه برباط وثيق .

بل إن هذا الاستطراد كثيرًا ما كان يعنى شيئًا آخر ، ربما كان يعنى استقصاء الموضوع استقصاءً كاملاً ، بحيث يوفيه حقه من البسط فى القول، والدقة فى التصوير بما لا يدع مجالاً لزيادة مستزيد ، وكأنّى به يضع نفسه موضع قارئه ، فيتطوع سلفًا بالإجابة عن كل ما قد يثيره القول من أسئلة ، أو يتطلبه من زيادة بيان ، فلا ينتظر حتى يصله السؤال ، بل يبادر إلى الجواب ، وكأنه يحس أن حق قارئه عليه أن يصل إليه المعنى كاملاً واضحًا ،

بسيطًا وسهلاً . . ولن تجد استطراداته إلاّ متصلة بالموضوع لسبب أو لآخر . . !

والمازنى بعد يتبسَّط فى أحاديثه ، ويُكثر من مخاطبة قارئه ، وكثيرًا ما يختار مفردات يُخيل إلى قارئها أنها من (العامية) ، وهى فى حقيقتها من اللغة الفصحى ، وإنْ لم يدرك ذلك كثيرون ، ويندر أن يستعمل لفظًا عاميًا صرفًا ، وإنْ لم يجد عن ذلك معدًى وَضَعَهُ بين قوسين .

وهو كذلك يميل إلى أن يصوّر الواقع فى صدق ، ويضفى عليه من الظلال والألوان ما يجعل منه صورة حية ناطقة ، حتى ليخيل إلى قارئه أن صدى الضحكات يصك سمعه ، وأن ما يصوره يمثل أمامه نابضًا بالحياة، فياضًا بالحركة .

وكثيرًا ما يلجأ إلى لغة الحوار ، فلا يجمل الرواية ، وإنما يفصلها ، تاركًا لكل طرف من أطرافها أن ينطق بالرأى ، أو يأتى بالجواب ، ولا يتدخل المازنى إلاّ فى نهاية الحوار ليستخلص شاهده ، أو يشير إلى وجه استشهاده .

وهو كثير الإشارة إلى آراء الآخرين من المفكرين وذوى الرأى ، سواء من كُتّاب الغرب أو العرب ، ولكنه لا يأخذ بهذه الآراء دون مناقشتها ، والتعليق عليها ، وإثبات موقفه منها . . وذلك كله على نحو يدل على سعة اطلاعه ، وتنوع وتعمق معارفه . . وكأنه يريد أن يرتقى بقارئه ليبلغ مبلغه علمًا وتحصيلاً ، ونشدان جمال .

وهو ـ بعد ـ يميل إلى الموضوعية ، ويساند أفكاره وآراءه بالعديد من الأدلة ، وكأنه لا يريد أن يترك قارئه إلاّ وقد أقنعه بما يذهب إليه . . وموضوعيته هى الموضوعية الواقعية ، ومن هنا نجد كثرة ما يورده فى مقالاته من روايات لحوادث يعرفها أو وقعت له ، يصورها على نحو رائق وبسيط ، بل كثيرًا ما يستشهد بما وَقَعَ له من أحداث ، وما مَرَّ به من تجارب ، وكأنه

يودّ أن يدخل بقارئه إلى عالمه ، يطلعه على أسراره ، ويكشف له عن أعماق نفسه، وطوايا قلبه . . كل ذلك فى بساطة آسِرَة .

غير أن الملاحظ أن هذا النهج الواقعى لم يكن هو أسلوبه فى مرحلته الأولى التى كان يمارس فيها الكتابة هاويًا غير محترف ، إنما هو قد تطور ـ وطور نهجه ـ مع اشتغاله بالصحافة وتفرغه لها ، فكان لذلك تأثيره فى أدبه وإنتاجه ، بل فى نهجه فى الحياة بصفة عامة . . وقد حرص هو نفسه على أن يتحدث عن هذا التطور فى إنتاجه ونهجه ، فكتب يقول :

« . . كان أدبى نظريًا بحتًا ، أو قُلْ إنه الأدب الذى يعتمد على الكتب، ولا يستمد من الحياة إلاّ قليلاً ، لأن صاحبه لا يعانيها معاناة وافية . وكنت أقول الشعر أيضًا فى ذلك الزمان ، وأرى الآن أن ما قلت لم يكن سوى توليد من القديم كنت أحسبه جديدًا ، لأنه لم يكن مظهرًا لاستجابة النفس لما يهيب بها من الحياة إذ تواقعها . وكنت متكلفًا فى أسلوب الشعر والنثر جميعًا، لأنى أعيش بين الكتب ، ولا أكاد أعرف سواها إلاّ ظنًّا على الأكثر، ولهذا كان أدبى فى ذلك العهد دراسات فى الأغلب قوامها القراءة وحدها تقريبًا ، وشعرًا لا يصوّر النفس على حقيقتها ، ولا يعبِّر عنها تعبيرًا صحيحًا، لأن الاقتباس فيها بالقديم ـ من شرقى وغربى ـ أكثر من الاستمداد من التجريب . وكنت بطيئًا فى الكتابة والنَّظْم ، معنيًّا بالتجديد كما كنت أفهمه ، وكنت مع عنايتى بالمعنى لا أرضَى عَمّا ترضى عنه أذنى حين أعرضه عليها . . » .

ويقول فى موضع آخر : « لم أكن راضيًا عن الأسلوب الذى تُكتب به الصحف ، ولكن عدم الرضا عن لغة الصحافة لا يستوجب أن أذهب إلى

(١) د. نعمات أحمد فؤاد ـ المرجع سالف الذكر ـ ص ١٩٠ ، ١٩١ نقلاً عن العدد الخامس من السنة الأولى من مجلة الكاتب ـ مارس ١٩٤٦م ـ ص ٦١٨ .

الطرف الآخر ، وفى الإمكان التوسط ، وتبينت على الأيام أن لغتى القديمة فاترة أو خامدة ، وأنى كأى قطعة متخلفة من زمانٍ مضى ، وأن الحياة الجديدة لها لغتها ، وأن اتصالى بحياة الناس بفضل الصحافة قد فَجَّرَ فى نفسى ينابيع جديدة ، وأكسب أسلوبى نبضًا ليس من الوجع ، بل من الحيوية ، وأفدتُ مرونة كانت تنقصنى أنا ، وتنقص لغتى وأسلوبى ، وأصبحت قادرًا بفضل الصحافة أن أكتب فى أى وقت ، وفى أى موضوع ، وفى خلوة أو بين الناس ، وأن أحصر ذهنى فيما أنا فيه ، فلا تشتت خواطرى الضَّجَّات التى كانت حولى » (١) .

المازنى ساخرًا :

وثمة سمة أخرى مَيَّزَتِ المازنى أسلوبَ كتابةٍ ، ومنهجَ تعبيرٍ ، وهى تلك النزعة إلى السخرية ، التى كثيرًا ما تغلِّف كتاباته . . وهى ـ فى الواقع ـ نزعة تسمو بالسخرية إلى أعلى مراتبها . . فهى سخرية لا تسيء إلى أحد وإنْ أضحكت القارىء ، أو على الأقل ساهمت فى التسرية عنه . . وربما كان ذلك من أهداف المازنى . . وهو نفسه قد كشف عن هذه النزعة ، وحاول أن يجلِّى أسرارها فى إحدى مقالاته ، فقال :

« أنا فى العادة أُوثر الاحتشام أمام الناس ، ولكننى حين أكون بين إخوانى وخُلصائى أطلق لنفسى العنان ، ولا أبالى ما أقوله أو أفعله ما دمت أريد أن أقوله أو أفعله . ولو وسعنى أن أملأ الدنيا سرورًا واغتباطًا لفعلت ، فإنى عظيم الرثاء للخلق ، وأحسب أن هذا تعليل ميلى للفكاهة ، فإنى أتسلَّى بها، وأنشد أن أُدخل السرور على قلوب الناس ، لاعتقادى أن عند كل منهم ما يكفيه من دواعى الأسَى ، ومادام فى الوسع أن نعرض عليهم الناحية

(١) د . نعمات أحمد فؤاد ـ المرجع سالف الذكر ـ ص ١٩٠ ، ١٩١ نقلاً عن العدد الخامس من السنة الأولى من مجلة الكاتب ـ مارس ١٩٤٦م ـ ص ٦١٨ .

المشرقة الضاحكة . . فلماذا نغمُّهم ونحزنهم ؟ ثم إن للفكاهة مزية أخرى ، هى أنها أقوى ما أعان على احتمال الحياة ومعاناة تكاليفها ، والنهوض بأعبائها الثقال ، فهى ليست هزلاً ولا تسلية فارغة ، وإنما هى تربية للنفس، والرجل الذى يَلْقَى الحياة بابتسامة المدرك الفاهم ـ لا الأبله الغافل ـ خير وأصلح ألف مرة من الذى لا يزال يدير عينيه فى جوانبها الحالكة ، ويندب ويبكى ويعول ، ولو نفع السخط والغضب والبكاء لقلنا : حسن، فلماذا لا ننظر إلى الجانب الوضَّاء ؟ أو لماذا عنه وهو موجود؟ أى : لماذا نفقد القدرة على الاحتفاظ بالاتزان ، أو صحة الوزن للأمور ؟ » [1] .

وللسخرية ـ أو للفكاهة عند المازنى صور عديدة ، فقد تأتى فى الجملة العارضة ، أو فى الوصف العابر ، أو فى التعبير الموحى ، أو فى الصورة الناطقة ، أو فى المضمون الساخر .

ولَعَلَّ من الصور الجامعة لسخريته أو ميله إلى الفكاهة ـ والكاشفة عن سماتها الهادئة السمحة ـ هاتين الفقرتين اللتين يتحدث فيهما عن لقائه ـ وزوجه ـ مع الشيخة صباح :

« فقد كانت الشيخة صباح ، على الرغم من (التمشيخ) غيداء ، حسناء، مبتلَّة ، ورطبة حلوة ، يجرى ماء الشباب فى محيَّاها من نضرة النعمة، ولو طبع وجهها على جُنَيْه لَزَانَتْه وأَغْلَتْهُ ، وكان شعرها الفاحم السبط ، والورد الذى تتضرَّجُ به وجنتاها من آيات صنع الله ، تبارك وتعالى من خلاَّق عظيم ، أما عينيها النجلاء الرقيقة الجفن ، (الجِنِيَّة) الإنسان ، فأنفذ من أشعة (إكس) إلى حنايا الصدور ، وطوايا القلوب » .

« وقلت : إذا كنتِ تشعرين أنكِ لن تطيقى الحياة إلاَّ إذا حملتُكِ إلى ذلك البيت الضيق لأختنق ساعة بالبخور المنطلق من المجامر حتى تتفضل فتبرز

(1) أخبار اليوم : ١٧/٩/١٩٤٩ م.

لك ، وتمنّ عليك بإنبائكِ ، وأنا من الشاهدين : أن (أمامك سفرًا . .) ، فصاحت بى مقاطعة : اسكت ، وحذارِ أن تذكرها بغير الخير . . فسكتُّ، وما حيلتى ؟ » .

« ورُفِعَ السَّجْفُ ، ودخلت علينا الشيخة صباح مسترسلة الأعطاف ، ناعمة ، غير مُتَثَنِّيَة على لينها ، كأنها ملكة . وكانت ترتدى ثوبًا أبيض رقيقًا من الكتان ، وتغطى رأسها بشفٍّ ينسدل على جانبى وجهها إلى كتفيها وصدرها الناهد ، ويحجب جيدها الأتلع ، ويدور على ذقنها إلى قريب من ثغرها الدقيق الرقّاف الشفتين ، الذى ما خُلق إلاّ للقبلات الحرار ، لا لما يلهج به ، وأستغفر الله . .

وقبَّلَتْ زوجتى ، ومَدَّتْ إلىَّ يدًا رخصة هممتُ أن أبوسها بطنًا وظهرًا ، لولا هذه الزوجه التى لا تزال تظلمنى بسوء ظنها . . ولمّا دارت القهوة ، نظرت إلىَّ وقالت : أرِنى كفيك . . ابسطهما . ولمستهما لمسًا خفيفًا ثم أرسلتهما ، وأطرقت شيئًا ثم رفعت رأسها وحدّقت فىَّ دون أن تطرف وقالت: ستعطى ما لم تطلب ، وتُؤْتَى ما لا يُباع ولا يُشْتَرى ، وتُسْلَبُهُ فى اليوم نفسه ، فرفعت عينىَّ إلى السماء ـ أو إلى السقف ـ ولمحت زوجتى وقد أخذ كتفاها يهتزان من الضحك المكتوم . ومضت الشيخه صباح فى نبوءتها غير عابئة بنا : (. . وسيُنْضَى عنك ثوب الرجولة . . إلى حين يا صاحبى)، ونحَّتْ وجهها عنِّى . وقالت وهى تودِّعنا : أحسبنى لم أخاطب منك سوى أذنيك ، فإنى أحس أن قلبك بعيد . . فأكدتُ لها أنه مازال فى موضعه تحت الضلع العاشر ، أم تراه الخامس عشر ؟ معذرةً ، فلست أعرف عدد هذه الضلوع . فجذبتنى امرأتى من ذراعى ، ثم دفعتنى خارجًا، وسمعتها تقول للشيخة صباح : إنه يمزح . . فلا تغضبى عليه . . فقرضت أسنانى ولم أقل شيئا » [1] .

(1) من مفتتح روايته : « عودٌ على بدء » .

صورة تفيض بالفكاهة ـ والسخرية ـ فى آن واحد . . تشيع فى النفس راحة ، وتبعث فيها بهجة وسرورًا ، وهى ـ مع ذلك ـ تمضى بك هيّنة ليّنة ، وتنقلك إلى موضع الأحداث ، وتكاد تنقل إليك ليس فقط ما دار من أحاديث وما جرى من أحداث ، بل تنقل إليك أيضًا ما تردَّد من أنفاس وما اعتلج به الصدر من شعور وإحساس . . !

وقد كتب كثيرون عن هذه السخرية ، وتساءلوا : ما مصدرها ؟ وما غايتها ؟ وهل هى نابعة عن نزعة استخفاف بالحياة ، واستهانة بالآلام ؟ أم أنها تنفيس عن صدر مكلوم ، ونفس ضيقة ، وكأنها ردّ الفعل لحزن عميق؟ وتجاهل الجميع ما قاله المازنى نفسه فيما نقلناه عنه من أنه إنما يتسلى بها ، وينشد منها أن يدخل السرور على قلوب الناس ، لاعتقاده أن عند كل منهم من دواعى الأسى ما يكفيه .

ونضيف : إنها صدى لطبيعته ، وتعبر عن تحرره ممّا كان يقيد به نفسه من قيود ، انطلق بعدها على سجيته ، يتحدث ، ويُحدّث ، ويكتب ، ويكشف عن أعماق نفسه ، بل يسخر حتى من المازنى نفسه ومن مواطن الضعف فيه .

ومع ذلك ، فهو لم يتخلَّ قط عن نزعة الصدق التى تسم كل سطور كتاباته .

وتتجلى هذه النزعة الساخرة أوضح ما تتجلى فى عناوين مؤلفاته ، وفيما يصدِّرها من إهداءات أو مقدمات .

إن أول ما صدر من كتب ضمت مقالات المازنى وأبحاثه متعددة الأغراض كان كتابه : (حصاد الهشيم)، فانظر معى ماذا يحصد الواحد منّا من الهشيم الذى تذروه الرياح ؟ إن الكاتب هنا ليسخر من كل جهده ، وكل مقالاته التى جمعها فى كتابه .

وبالمثل كان اختياره لعنوان كتابه الآخر : (قَبْض الريح) . . فكيف وأنّى للمرء أن يقبض الريح ، أو يمسك به ؟ وربما كان مقصده أن مقالاته التى تضمنها كتابه كانت ريحًا عاصفة عصفت بمن تناولته . . ولكنها مع ذلك مضت ، وانقضى أمرها دون أن تخلّف أثرًا سيئًا ، وإن ظلت تمثل أثرًا فريدًا فى النقد الساخر . . !

وإذا كان قد أطلق على روايته الأولى اسم (إبراهيم الكاتب) بما قد يلفتنا إلى الصفة الأولى التى تميزه عَمَّنْ سواه ، وهى انشغاله بالكتابة ، وهى فى ذات الوقت تذكرنا بسلفه : عبد الحميد الكاتب الذى كانت الكتابة حرفته وشهرته ـ فهو قد صَدَّرَ كتابه بإهداء غاية فى الطرافة ، فقد أهداه :

« إلى التى لها أحيا ، وفى سبيلها أسعى ، وبها وحدها أعنى طائعًا أو كارهًا . . إلى نفسى » .

ثم أَتْبَعَ ذلك ـ بعد فترة طويلة جاوزت العشرين عامًا ـ برواية تستكمل مسيرة إبراهيم الكاتب ، حريصًا شديد الحرص على أن يلفت نظر قارئه ـ منذ مطالعته للعنوان ـ إلى أنه بصدد حديث عن حاضرٍ يتصل بماضى (الكاتب) ، فإذا به يطلق على روايته (الجديدة) عنوان : (إبراهيم الثانى)، ويزيد الأمر إيضاحًا فيقول : « إبراهيم الثانى هو (إبراهيم الكاتب) أو كأنه على أصح القولين ، ثم تغيَّر جدًّا ، لو أمكن أن يلتقى الإبراهيمان لاحتاجا إلى من يقوم بينهما بواجب التعريف » . . وإذ كانت مدار الأحداث فى الرواية الثانية هى الزوجة ، وهى تُدْعَى فى الرواية (تحية) ـ فقد حرص على أن يكون الإهداء إلى :

« إلى كل (تحية) يشقى صبرُها ببعلها . . أحيانًا » .

ومن هنا نجد السخرية الهادئة هى سمته ، سواء فى اختيار عناوين كتبه ، أو ما يصدِّرها به من إهداءات أو مقدمات . . وهو ذات النهج الذى

اختاره لكتابه (خيوط العنكبوت) ، وهو يضم مجموعة من القصص والصور فى قسمين : صور من (الأمس) ، وأخرى من (اليوم) وأول ما يلفت النظر فيه هو هذا العنوان (خيوط العنكبوت) التى وصفها المولى العلى بأنها أوْهَنُ البيوت ـ أو الخيوط ـ فانظر إيحاء هذا العنوان وطرافته ، واقرأ معى هذا الإهداء :

« إلى ابنىَّ الصغيرين : رضا عبد القادر المازنى الذى أوفى على السادسة ، وعبد الحميد عبد القادر المازنى الذى شارف الرابعة : اعترافًا بفضلهما علىَّ ، وشكرًا لمعونتهما لى ، فلولا عبقريتهما لظهر هذا الكتاب قبل عامين » .

وكذلك جاءت عناوين كتبه الأخرى : صندوق الدنيا ـ ع الماشى ـ فى الطريق ـ من النافذة ـ عودٌ على بدء ـ ثلاثة رجال وامرأة (ولعله أول من استعمل الرقم العددى عنوانًا لقصته) . . إلخ .

ولنا أن نرى أن سخريته هى ـ بصفة عامة ـ سخرية تشعر قارئها بأنها صادرة عن طبيعة مرحة ، وعن نفس سمحة ، لا تنطوى على أى افتعال ، ولا تحمل سمة (الصناعة) أو (التلفيق) ، أو الرغبة فى أن يبدو الكاتب ساخرًا ظريفًا ،وهو فى الحقيقة لم يُؤتَ ملكة السخرية . . فالواقع أن سخرية المازنى إنما هى صورة من نفسه ، وتصوير لطبيعته ، وتعبير عن طبعه وأسلوبه ، تصدر عنه فى يسر وبساطة وتدفّق ، وكأنه يؤكد فى كل حرف يكتبه : هكذا خُلقتُ ، وما أُعْطِى إلاَّ ما عندى ، وما أحاول ـ فيما أكتب ـ أن أصنع قولاً أو اصطنع أسلوبًا ، أو أفتعل تعبيرًا ، بل إننى لأوثر أن أتحدث إليكم كما يأتى الحديث : عفو الخاطر ، فإن أعجبكم وأرضاكم فإنَّ هذا لَمِمَّا يسعدنى ، ويُدخل السرور على نفسى ، ويشيع الغبطة والفرحة فى أنحائها . . وإن أغضبكم ـ أو لم يرضكم ـ فأصارحكم القول : بأن هذا هو كل ما عندى ، وما جادت به قريحتى ، وخيركم من جاد بما عنده ـ كما يقول المثل الشائع .

وقد لفت نظرنا ـ فيما يتصل بسخرية المازنى ـ تلك الفصول التى كتبها باحثون مجدّون ، وكُتَّاب أفاضل عن هذا الجانب من جوانب المازنى ، حيث ضمّنوها نتائج أبحاثهم ، وخلاصة آرائهم التى أقاموها على ما مهدوا به من أسباب ، ومقدمات ، ودراسة للوسط الاجتماعى ، وللأصول التاريخية ، وللعوامل الوراثية . . إلى آخر ما هنالك من مقومات للأبحاث ، وأسس علمية ينبغى أن تقوم عليها الدراسات الجادة .

ولست أدرى لِمَ وجدتُ نفسى منصرفًا عن هذه الأبحاث ، غير حريص على أن أُحيط بها إحاطة دارس متعمق ، وإذا كنت أقر وأعترف أننى كنت مجانبًا للصواب فى هذا المسلك فإننى أودّ أن أعترف بين يدى القارىء أن دافعى إلى ذلك هو إيمانى بأن سخرية المازنى إنما هى طبعٌ لا تَطَبُّع ، وأنها سمة أصيلة لا صفة مكتسبة ، شأنها شأن سائر الظواهر الطبيعية التى تقف الدراسة بشأنها عند مجرد الرصد والتسجيل ، لأنها حقائق (كونية) ، تدور الدراسة حولها كظاهرة قائمة لها آثارها ونتائجها .

فالمازنى الساخر ، وإنْ كان قد نَمَّى موهبته بالدراسة والاطلاع ، وصقلها بمداومة الكتابة والإبداع ، فإن جذور السخرية عنده هى طبع أصيل ، تبدو ملامحه فى كتاباته الأولى ، كما تبدو فى كتاباته الأخيرة ، بل حتى فى كتاباته الحزينة ، فإن بعض ملامح السخرية تتغلب على نزعة الحزن، ونوازع الألم . . ومن هنا فإن أصدق ما يُكتب عن المازنى ـ عندنا ـ هو ما يصدر عن محاولة لفهم طبيعة المازنى الساخرة بأبعادها الحقيقية التى تعلو على الصناعة ، وتصدر بريئة من الافتعال . . !

ومن هنا كان المازنى متميزًا بين معاصريه ، يختلف عنهم فكرًا وأسلوبًا ومنهاجًا ،حتى مَنْ شاركاه مدرسة الديوان ، فلم يكن المازنى صورة لأىٍّ منهما ، وإن اتفق معهما فى بعض الآراء . . فقد كانت للمازنى شخصيته

المتميزة ، وكان له أسلوبه المُتَفَرِّد ، ورأيه المازنيُّ الأصيل . . وكان فى كل ما يكتب نسيجَ وحدِه ، ولم يكن فى وقت ما صدى لسواه ، وعلى ذلك كانت له مكانته الخاصة التى احتلها بين رفاق مسيرته ، والتى سيظل يحتلّها على مر العصور .

المازنى وعالم الرواية :

كان المازنى من رواد كُتَّاب الرواية فى مصر ، وقد أبدع فى عالم الرواية أكثر من أثر ، غير أن إبداعاته جميعها لم تحظَ بما هى جديرة به من الدراسة والعرض ، فيما عدا روايته (إبراهيم الكاتب) ، فهى وحدها التى نالت شهرة كبيرة ، وتعددت كتابات الدراسين عنها ، وقرنوا دائمًا دراستها بدراسة بدايات ظهور الرواية المصرية ، ومن ثمّ فهم يجمعون بين كتب ثلاثة هى : (زينب) للدكتور محمد حسين هيكل ، و (الأيام) لطه حسين ، و(إبراهيم الكاتب) للمازنى ، ويشيرون إلى هذه الأعمال الثلاثة على أنها تمثل المحاولات الأولى - التى اكتملت عناصرها الفنية إلى حد كبير - فى إبداع الرواية المصرية، والتى كانت بمثابة الأعمال الرائدة ، والتى شقت الطريق لمبدعين كبار فى عالم الرواية والقصة .

ونحن إذ نُقِرُّ لأصحاب هذه الأعمال بالريادة ، فإننا لا ننكر بالطبع جهود من سبقوهم ، وإنْ جاءت أعمالهم أقل فنية ، ومن ثمّ لم يكتب لها البقاء والانتشار، حتى ليتعذر على الباحث أن يُتاح له الاطلاع على معظمها، ومن ثمّ فإنه يكتفى بالتعرف عليها من كتابات بعض السابقين الذين أشاروا إليها .

وروايات المازنى - كسائر كتاباته - هى صورة منه ، أو هى فى الواقع حديث نفسه إلى نفسه ، أو إلى قارئه الذى يعتبره بعض نفسه . فهى بسيطة يسيرة ، لا تميل إلى تعقيد الأحداث أو افتعال الواقعات ، بل تقف روايتها

عند ما هو مألوف ومعروف ، دون ميل إلى الشذوذ أو الإغراب ، حتى ليظن قارئها أنه كان فى وسعه أن يكتب مثلها ، وهذا فى حد ذاته هو الدليل على أنها تأتى قريبة من نفس القارىء . . بالغة التأثير ، حتى ليرى فيها صورة من حياته ، أو على الأقل مما يعرف من حياة .

ولعل مصدر ذلك أن معظم هذه الروايات إنما كان وحيًا مستمدًّا من حياة المازنى نفسه ، وما مرَّ به من أحداث ، حتى ليختلط الأمر فى كثير من الأحيان، فلا ندرى ما إذا كان الكاتب يتحدث عن نفسه حديثًا ذاتيًا أم أنه يقدم عملاً فنيًا : (رواية تستوحى حياته الشخصية بعض أحداثها) . . على أن القارىء - أيًا مَّا كان الرأى - يظل طوال صفحات الرواية مرتبطًا بكاتبها ، وكأنهما رفيقان يمضيان معًا فى طريقٍ واحد ، وأولهما يمضى فى حديثه الشيِّق والصريح أيضًا ، يروى ما يود من أحداث ، ويقدم ما لديه من صور ووقائع ، دون أن يغفل التدخل - بين الحين والآخر - معلقًا برأى ، أو مبديًا فكرة ، أو مفلسفًا لما وقع - أو لما سوف يقع - من أمور . . ناهيك عن الوقوف طويلاً محلّلاً ومعلِّلاً دون أن يترك للأحداث - فى تطورها - تلك المهمة .

على أن رواياته تشدّ القارىء إليها ، وتجعله يعيش بين صفحاتها ، معاشرًا لشخصياتها ، مصاحبًا لها ، يستمع إلى ما تقول ، ويطالع صورها ، وأفكار أصحابها ، من خلال تقديم الكاتب لهم ، ورسمه لملامحهم . . ومهما ينقضى من زمن فلا يمكن لقارىء (إبراهيم الكاتب) أن ينسى (الشيخ على) ، و (أحمد الميت) - برغم أنهما قد يكونان شخصيتين ثانويتين - وما ذلك إلا لما يحسه من تعاطف معهما ، وأُلفة لهما ، وكأنه رآهما فى الواقع ، وعايشهما - بالفعل - فى الحياة .

ورواياته جميعًا - فيما عدا إبراهيم الكاتب ، وإبراهيم الثانى - تتبع - فى

أغلب الأحوال ـ مسارًا مستقيمًا متطورًا بتطور أحداثها . . فلا يلتفت قارئها إلى الوراء إلا للربط بين ما استجدَّ وبين ما سبقه من أحداث . . على أن ما في إبراهيم الكاتب من خروج على هذا النمط إنما يرجع ـ كما أوضح المازني نفسه ـ إلى ظروف كتابتها ـ كما سوف نعود إلى ذلك فيما بعد .

وهي روايات ترسم صورة صادقة لحياة كاتبها ، وعالمه الاجتماعي والفكري ، وعلى ذلك فهي ليست من الروايات الواقعية التي تتعمق الحياة ، وترسم صورة للواقع القائم ، وللأحداث التي تقوم على الصراع ، والتشابك والتجاذب والتناحر ـ بكل تفاصيلها ودقائقها ـ وإنْ كانت مع ذلك لا تحلق إلى سماء الخيال ، ولا تقوم على محض التصور . . فهي مستمدة من الواقع ، ولكنه واقع (مجتمع) معين ، هو (المجتمع) الذي يعرفه الكاتب ويحياه .

وروايات المازني ليست من اللون الرومانسي المغرق في رومانسيته ، فقد كان يرى في ذلك اللون ضعفًا لا يليق بالرجل القويم . . وكم أخذ ـ بل وحمل ـ على المنفلوطي انحيازه لهذا اللون الذي يَصِمُ أصحابه بالضعف وخور العزيمة ، وما هكذا تكون الصورة الصحيحة لابن الحياة الذي ينبغي أن يعدّ دائمًا لمشاقّها ومتاعبها ، متحملاً ما يلقى ، مجاهدًا ليتخطى كل ما يعترض سبيله من عقبات .

وهو بَعْدُ كثير التوقف ليحلّل ويناقش ويبدي الكثير من الآراء المباشرة ، وكأنه لا يودُّ أن يدع فرصة إلا ويفيد قارئه علمًا ومعرفة ، ويبسط أمامه ما يكون لم يتبينه من نوازع خفية ودوافع داخلية .

وشخصياته ليست جامدة ، بل متطورة ، ولكن بصورة هادئة ، وعلى مهل ، وغالبًا ما يكون ذلك التطور نتيجة اقتناع أدّى إلى التغير : في النظرة ، أو في السلوك ، والأغلب أن يكون صاحب الرأي الذي أحدث هذا التطور ـ أو التغيُّر ـ هو البطل الذي عليه مدار الأحداث . . سواء كان (إبراهيم الكاتب) ، أو (إبراهيم الثاني) ، أو (إبراهيم المازني) نفسه . . !

ونصل إلى ما أبرزه كثيرون من النقاد الذين ـ وإنْ اعترفوا للمازني بالريادة ـ أخذوا على رواياته الكثير والكثير من أوجه النقد .

فقد أخذوا على المازني عدم مراعاته ـ بصفة عامة ـ للأسس الفنية التي تقتضي أن يقنع الكاتب بدور الراوي ، دون أن يتدخل بالرأي ، أو بالتفسير ـ أو بالنصيحة ـ وأنْ يترك أحداث القصة هي التي تكشف عن التطور ، وهو ما يقتضي أن يتحقق للشخصيات نمو طبيعي مع مسار الأيام . . وأن تكون للقصة بداية ووسط ونهاية . . إلى آخر ما هنالك من أسس (فنية) تواضعَ عليها النقاد ، وتعارف عليها الدارسون .

قيل إنه لا يلتزم بهذه الأسس ، فقصصه أشبه ما تكون بأحاديث مرسلة ، وكأنه ما اتخذ هذه الشخصيات إلا لإبداء آرائه ، وليضع على ألسنة أصحابها ما يريد أن يقوله . . فكأنه يكتب مقالاً مطولاً على نسق الرواية .

وفي الحقيقة أن هذا ظلم للفن ، ، كما أنه ظلم للمازني في الوقت نفسه ، وذلك لأن فن القصة ـ أو الرواية ـ لم يقف ـ في الحقيقة والواقع ـ عند أسس محددة لا يعدوها ، فهو فن متطور ، بل شديد التطور ، والدليل على ذلك أن تلك الأسس التي أشرنا إليها سبقتها أسس عديدة أخرى كانت هي المعيار الذي تقاس عليه (فنية) العمل . . كما أن الاتجاه العام للقصة تطور ، وتذبذب بين ألوان متعددة ، وإلا ما ترددت هذه التقسيمات [1]: قصة الحوادث ـ قصة الشخصيات ـ القصة التمثيلية ـ قصة الأجيال ـ قصة الفترة الزمنية ـ القصة التاريخية . . وكذلك فإننا نقرأ عن القصة الرومانسية ، والقصة الرمزية ، والقصة الواقعية ، والقصة البوليسية . . إلخ . . ومن هنا فإن الفن لم يعرف ـ ولم يعترف ـ بلون واحد للقصة لا ينبغي للقاصّ أن يعدوه ، ولا بصورة واحدة لا يجوز للكاتب أن يخالفها . . وإنما الأمر متروك

(١) د . محمد يوسف نجم ـ فن القصة ـ ط بيروت .

لكل مبدع موهوب يستلهم إبداعه وفكره . . ولعلَّنا إذ وصلنا فى أيامنا المعاصرة إلى صورة جديدة من القَصص غير المفهوم ، مرورًا بالقصص اللامعقول . . فإن لنا أن نبحث عن معيار آخر نقيس به إبداع الكاتب ، وهو عندنا ـ كما عند المازنى ـ معيار الصدق فى التعبير ـ واستيحاء الشعور والفكر فى رسم الصورة، ورواية الحدث ، مع الحرص على بث الحرارة طوال صفحات العمل، وهى حرارة تنبع من العمل ذاته ، بما يحكى عن عواطف عميقة ، ومشاعر إنسانية نابضة ، بحيث يأتى العمل تصويرًا صادقًا لقطاع من الحياة ، أو لفترة من زمان ، أو لحالة مرت بإنسان .

ومن هنا كان لنا أن نرى ـ فيما قيل عن روايات المازنى ـ ظلمًا وأىَّ ظُلم للمازنى نفسه ، قاصًّا مبدعًا ، وروائيًّا رائدًا . . إنه قَدَّمَ لنا ما قدّم بطريقة تلقائية، فيها من الفن روحه وإلهامه ، وإن لم يلتزم بحرفية الفن . . وليس من شك فى أن قارىء رواياته يتابعها فى شوق ، ويرتبط بها وبشخصياتها فى حنان وإعجاب ، وتظل هذه الشخصيات ماثلة للذهن ، مرسومة على صفحة الخيال ، بما تتميز به من صفات ، وبما أقدمت عليه من أفعال ، بل بما تردد على ألسنتها من كلمات وأقوال . . حتى ليخيل إليك أنك تُعايشها ، أو أنها قد انتقلت إلى حياتك ـ فى الواقع ـ وصارت تعايشك ، وأصبحتم ولا يريد أحدكم لصاحبه ـ أو صاحبته ـ فراقًا .

ولا تسألنى بعد ـ وقد وصلنا إلى هذه النتيجة الباهرة ـ أى المذاهب كان يلتزم فى إبداعاته ؟ ولماذا لم يترك لشخصياته أن تنمو وتتطور ؟ أو أين كانت العقدة فى القصة ؟ وما هى الرسالة التى يريد أن يعبّر عنها ؟ ولماذا كان يتدخل كثيرًا فى سير الأحداث فيبدى الرأى ، أو يقدم التحليل ؟

لا تسألنى عن شىء من ذلك طالما أنك ـ مثلى ـ لست ناقدًا ممن يشغلون أنفسهم بصناعة النقد ، ودراسة الآثار ، وتحليل الإبداعات ، فأنا وأنت من

القراء الذين إذا قرءوا وأُعجبوا ورضوا قالوا : لقد قرأنا وأُعجبنا ورضينا . . حتى وإن جاء ذلك على عكس ما يرى أهل العلم بالأدب وفنونه ونقده .

وهذا رأيى الذى أقدمه . . وأستغفر أساتذتى من كبار النقاد إذ خالفتُ آراءهم ، وخرجتُ على إجماعهم . . وما أحسبهم إلاَّ مشفقين علىَّ ، فلن يسنُّوا أقلامهم للهجوم على ذلك الذى لا يكتفى بأن يقتحم عليهم ميدان تخصصهم ، بل يخرج على ما يقولون . أستغفرهم ، وكلى ثقة فى أنهم سوف يغفرون ، لأنهم ـ قبل كل شىء ـ أهل فن وأدب ، وهم ـ بالتالى ـ من عشاق الحق والخير والجمال . . بل إننى قد أفدتُ من كل ما كتبوا عن المازنى ، وعَمَّا وجهوا إليه من سهام نقد ـ وعَمَّا قالوه فى كثير من المواضع من عبارات تقدير وإعجاب، وإن جاءت على استحياء حينًا ، وبقدر فى أغلب الأحيان .

وإذ نشير فيما يلى إلى روايات المازنى فنذكر أنها ست ـ كما أن له مسرحية وحيدة ـ وهى :

- إبراهيم الكاتب (رواية) .
- إبراهيم الثانى (رواية) .
- ميدو وشركاه (رواية) .
- عودٌ على بدء (رواية) .
- ثلاثة رجال وامرأة (رواية) .
- من النافذة (رواية) .
- حكم الطاعة (مسرحية) .

وكم كنا نودّ أن نقرأ معًا كل هذه الأعمال ، ففيها متعة وأى متعة ، ولكن المقام لن يتسع إلاَّ لبعض اللمحات ، فلعل فيها ما يومىء إلى بعض ما نودّ

عرضه وبيانه ، وسوف يقتصر حديثنا عن العَمَلين الأولين فقط .

لمحات عن إبراهيم الكاتب ، وإبراهيم الثانى :

فى ختام روايته (إبراهيم الكاتب) نقرأ هذه السطور التى ضمّنها الصفحات الأخيرة :

« وقالت له أمه ليلة بعد أن ظلت برهة مطرقة تنظر إلى سبحتها ، وتخالسه النظر :

ـ يا بُنَىَّ ، ألم تفكر فى الاستقرار ؟

ولم ترد . كأنما كان هذا سؤالاً أخطره ببالها منظر حبات السبحة وهى تتناولها بأصابعها ، فنهض إبراهيم ، وقال وهو يتمشى وكأنه يناجى نفسه :

ـ الاستقرار ؟ إن البيوت الثابتة إنما اختُرعت لأن الإنسان اشتهى السلامة وطلب الأمن ، وأراد أن يكون مطمئناً إلى ما يتوقع . . والحياة تظل تجربة حتى يكون للإنسان بيت ، ويشعر أنه له ، ويصبح مَلِكًا لهذا البيت ، مشدودًا إليه ، مقيّدًا به ، والناس فى العادة يرتاحون إلى هذا الشعور ، ويحبون أن يكونوا على يقين من أن هناك وسادة يضعون عليها رءوسهم كل ليلة ، وأن هناك امرأة يسمونها الزوجة ترقد إلى جانبهم ، نعم ، فإن الإنسان إنما يطلب البيت لأنه يطلب الزوجة ، وهو يطلب الزوجة لأنه يريد أن يريح نفسه . . هذا هو الاستقرار . . وليس فيه ما يخدم الآداب والفنون .

فنهضت وهى تتمتم بالدعاء له » .

وكتب إبراهيم بعد ذلك يصف ليلته تلك :

« هى ليلة حالكة ، متراكبة الظلمة ، وفى الصدر ضيق ، فأين عن صحرائى أَعَدِّى ؟ . . ودلفت بى رجلاى إلى المقابر ، فتخللتها إلى جَدَثٍ

فيه شطر من مَاضِىَّ ، وقعدتُ وأسندتُ ظهرى إلى حجارته ، وأنا أقول لنفسى :

(الموت على الأقل راحة ، فليت الحادى يُعَجِّلُ بنا ! فقد سئمتُ الحياةَ ، ومللتُ النظر إلى وجهها الملطخ ، وثوبها المرقع ، واشتقتُ أن أرقد هنا إلى جانب . .) .

فخلص إلىَّ صوتٌ من جانب القبر أن (لا) .

قلت : كيف لا ؟ .

واستدرت حتى واجهت أضواء القبر .

قال الصوت : (لا) على التحقيق . إن لى هنا سنوات لا أعلم عددها ، ولعلها أقل مِمَّا توهمنى وحشة الوحدة التى تطيل أيامى التى صارت كلها (ليالى) ، أو لعلها كثيرة ، فما أدرى ، وقد حُجبت عنى الدنيا . ولو كان المرء يموت مرة واحدة لقلت لك : صدقت . ولكنه يموت مرة كلما نسيه واحد من الأحياء ، ويشتمل عليه الفناء شيئًا فشيئًا ، وأنت على الأقلّ تذكرنى فَأَبْقَى بذكراكَ ، فلا تسلمنى إلى العفاء بموتك ! ولسنا نألم الرقاد هنا ، وإن كانت ظهورنا توجعنا أحيانًا من طوله ، ولكننا نألم فتور الذكرى عنا ، وإشفاءنا على التلف الأخير . وهاهنا فى قبرى ـ فى حجرة أخرى ـ جَدٌّ أعْلَى لى مسكين ، مسكين قد استوفى ميتاته جميعًا ، ولم يبق منه شيء ! . . وليت ادكاريه ينفعه ! إذن لرددت إليه بعض الوجود . . ولكن هيهات ! إنما يجدى الذكر مِمَّنْ فوقها دون من هم فى جوفها مثلى .

قلت : ولكن إذا تعلقت بالحياة فلا مَعْدَى عن إجابة دواعيها ، أفلا يسوؤك ذلك ؟

قال الصوت : كلا ! سيَّان عندى أن تفى لى أو لا تفى . ومن العبث أن

تتكلف لى الحفاظ ، فإننى بعد أن مِتُ لا يسعنى أن أُوليك الشكر الذى تستحقه أو تنتظره . ولا ألتفتُ إلى وفائك أو غدرك ، وإنى لأدرى فوق هذا أنك لا تذكرنى لذاتى ، بل لما طابت به نفسك ، فافعل ما بَدَا لَكَ . ولا تُعَنِّ نفسك بى من هذه الناحية ، ولكن أبْقِ لى رقعة صغيرة . . زاوية من ذاكرتك أفيد بها عذوبة البقاء .

قلت : فإذا نسيتك كغيرى ؟

قال الصوت : إذا نسيت ؟ آه ! ولكن ما لنا وما لم يَقَعْ ؟ دع هذا إلى أوانه عسى أن يكون بعيدًا .

قلت : حَسَن ، سأحيا من أجلك ، وأتَّقِى المهالك إكرامًا لك ، وضَنًّا بك أن تلقى الأموات جدًّا .

قال الصوت : اتفقنا . فإلى الملتقى .

فسرتْ فى بدنى رعدة خفيفة ، ولم يسرنى أن تقول : إلى الملتقى . ونهضت عن القبر ممتلئًا رغبةً فى الحياة ، وضنًّا بها ، وحرصًا عليها ، وعُدْتُ أدراجى إلى دارى خفيفًا كأنما حططتُ عن كاهلى وقرًا ، وجعلتُ أقول فى الطريق :

ـ نعم سأحيا من أجلها !

ولمّا أدرت المفتاح فى الباب همس فى أذنى الشيطان اللعين :

ـ تقول من أجل من ؟

وقهقه . . !

فغاظنى ذلك وأخجلنى أيضًا . فأشحتُ بوجهى ، وأسرعت فدخلت وأغلقت الباب فى وجهه ! . . » .

ولعل كاتبنا كان يتحدث عن زيارته لقبر زوجه الأولى . . فرواية إبراهيم الكاتب إنما تمضى أحداثها عقب خروج بطلها ـ إبراهيم الكاتب ـ من مأساة موت زوجه الأولى ، التى جاءت ميتتها على يد الطبيب الذى كان يقوم على (عملية وضعها) . . حيث فارقت الأم الحياة ، وخرج المولود إلى الحياة . . فكانت مأساة غمرت (إبراهيم) بظلالها ، وآثارها [١] .

وقد ألمّ به مرض استدعى دخوله المستشفى ، « وتبدأ أزمته منذ مرضه بالمستشفى وتعلقه بمارى ممرضته التى يخشى استمرار علاقته بها ، فيسافر إلى الريف عند أقاربه حيث يجد بنت خالته (شوشو) الفتاة الجميلة الحَيِيَّة ، وأختها سميحة العاثرة الحظ التى ينفر منها كما ينفر الدكتور محمود نفسه طبيب العائلة وأحد أقاربها . وأخيرًا (نجية) الأخت الكبيرة ، زوجة الشيخ (على) صاحب العزبة التى نزل بها . وكان إبراهيم قد نشأ صغيرًا مع بنات خالته ، ولكم داعب (شوشو) وهى طفلة وهو يافع مكتمل ، حتى شبَّا كأخوين ، وانقطع عنها سنين طويلة ، وها هو ذا يعود اليوم فيجدها فتاة تغرى الأبصار والقلوب . وانتهى الأمر بأن اهتزَّ قلبها بحبه ، وحاول أن يقاوم ذلك الحب ، فلم يستطع ، فودّ أن يتزوجها ، ولكن (نجية) لم تكن لتقبل أن تتزوج (شوشو) قبل (سميحة) الأكبر منها سنًا ، وأصرت على أن تكون (سميحة) لإبراهيم . وإبراهيم رجل عنيد يعرف ما يريد . وحاول الشيخ (على)الرجل الحكيم المتزن أن يثنى من حماقة زوجته فلم يصل إلى شىء . . وجرحت كبرياء إبراهيم ، إذ رفضت نجية أن (تعطيه) شوشو ، ولو (دفع لها وزنها ذهبًا) . ونفض إبراهيم يده من الأمر ، وسافر إلى الأقصر ، حيث كانت له مغامرة مع (ليلى) إحدى النساء الحديثات ، وإن كانت فى الحق امرأة لا تخلو من نُبل وأصالة . ومرض إبراهيم بالأقصر،

---

(١) وصف المازنى هذه المأساة فى أكثر من موضع منها ، وروايته لأحداثها فى « قصة حياة » ـ ص ٧٣ .

وعاده الشيخ (على) والدكتور ، وشُفى ، وغادرته(ليلى)، وعاد هو إلى القاهرة. وقد علمنا أن (شوشو) قد تزوجت من الدكتور محمود ، بعد أن برحت بها الآلام كما برحت بإبراهيم الذى لا نعلم من أمره بعد ذلك شيئًا»[1].

هذه هى الخطوط الرئيسية لرواية (إبراهيم الكاتب) كما لخصها أحد أعلام النقد عند دراسته لها . . وإنْ كُنَّا قد أوردنا فى مطلع الحديث السطور التى وردت فى ختام رواية المازنى . . وهى سطور توحى بما بعدها ، وتتركنا نتوقع بعض تلك الأحداث .

على أن لنا أن نرى فى هذه الرواية نواحى جمالية وإبداعية تعلو بها عن مجرد رواية لما تضمنته من أحداث . . فأحداثها ليست هى مدار الإبداع فيها، فهى أحداث عادية ، لكنَّ فى الرواية ـ على طول صفحاتها ـ روحًا تشع منها ، فيها عمق ، فيها شعر ، فيها سخرية ، فيها صدق ، فيها عطف وحنان . . فيها ـ باختصار ـ كل المعانى الجميلة التى تأسر القارىء صاحب الإحساس الصادق ، الذى يبغى من القراءة غذاءً لوجدانه ، وإرضاءً لعاطفته ، وإشاعةً للبهجة فى نفسه ، وإذكاءً للفكر عنده . . ففى رواية إبراهيم الكاتب ذلك كله ، بل ما هو أكثر منه .

ولا نود أن نقف طويلاً عند الناقدين لها ، وبصفة خاصة أولئك الذين وصفوا بطلها بأنه (الهارب من الحياة) ، وغيرهم الذين عابوا على الكاتب إيمانه بـ (التثليث) [2] فى الحب ، وهو فى رأيهم ليس مما يتفق مع الطبيعة السوية . . كما لا نقف عند أولئك الذين نسبوا إلى كاتبها سرقته (صفحات

---

(١) تلخيص القصة كما وردت فى فصل إبراهيم الكاتب من مؤلف د . محمد مندور : نماذج بشرية ـ ط ٣ ـ ص ١٨٩ .

(٢) قيل هذا لأنه كان يحب ثلاثًا من النساء فى وقت واحد . [انظر : إبراهيم الكاتب ـ ص ٣٠٢] .

بأكملها) من رواية سانين التى ترجمها المازنى نفسه تحت عنوان : (ابن الطبيعة) . . فكل تلك الأوجه من النقد ـ حتى وإن أصابت بعض الحق ـ لن تقلل من عمق هذا الأثر الإبداعى الذى سوف يبقى فى تاريخ الإنتاج العربى أثرًا من الآثار الباقية التى يزداد التقدير لها مع مرور الأيام . . والتى لا تفقد بريقها أو أصالتها برغم كل ما استجد ـ وما يستجد ـ من تيارات وموجات !

ولم تكن رواية (إبراهيم الثانى) هى التالية ـ تاريخيًا ـ لإبراهيم الكاتب ، فقد فصلت بينهما أعمال أخرى للمازنى . . لكن الكاتب هنا هو الذى أبى إلاَّ أن يربط بين العملين على النحو الذى أشرنا إليه من قبل ، فالبطل الذى تدور حوله أحداث الرواية الثانية هو نفسه (إبراهيم الكاتب) بعد أن تقدم به العمر ، واستقر به المقام ، وتزوج زوجته الثانية (تحية) التى جمعته بها حياة هادئة مستقرة ، ولكنه ـ قد صار فى العقد الخامس من عمره ـ « فكان أخوف ما يخاف أن يكون قد شيَّخ ، أو أشفى على الشيخوخة . . وكانت امرأته ذكية ، رحيبة أفق النفس ، بعيدة مطارح العين ، وكانت تتوخى أن تجدد نفسها له ، وتحرص على أن تحيطه بجو من الشباب ، ولا تفتأ تدعو من ذوات القربى أو من بنات المعارف الفتيات الناهدات واللاتى ما زلن فى عنفوان الشباب ، وكانت ترجو بهذا أن يجد بعلها ما ينعشه وينشطه ، ويميط عنه أذى الإحساس بالشيخوخة المخوفة أو المتوهمة ، ولم تكن تخشى عليه الفتنة ، فقد كانت تعرفه رزينًا حكيمًا ، وصبيًا محتشمًا ، وكان يعلم أن امرأته تحبه ـ أو لا تزال تحبه ـ غير أنه يخشى أن يكون حبها له عادة . . فاشتاق أن تحبه غيرها ، واشتهى أن يسمع كلمات الحب والإعجاب من أخرى . . وعرف فتاة فى بيته ـ وبفضل امرأته ـ اختلط أمرها عليه ، فما كانت ـ فيما يرى ـ من الغريرات ، ولا كانت من ذوات تجربة ما ، وكانت متزنة ، ذات عين فاحصة ، ولكنها غير صارمة ، وكانت أحلى ما تكون

حين تبتسم ، وتتقارب جفونها حتى لتكاد تنطبق . وكانت على سكونها وهدوء مظهرها فى كل حال لا يشك الناظر إليها فى أنها زاخرة بالحياة الفوّارة . . وما أسرع ما توادّا ، بل ائتلفا ، لا يدرى كيف ؟ وصفا إليها ، وصَفَتْ إليه . وأنِسَ بها وأنست به . . » [1] .

وكانت تلك هى (ميمى) ممن اتصلت أسبابه بأسبابها . . واستمرا فى حوار متصل ، هو يردّها عنه حينًا ، ويرخى لها أسباب الإقبال عليه أحيانًا أخرى . . حتى إنه ليحدّث نفسه بأن « ميمى لا تتطلع إلى شىء ، ولا تبغى إلاّ أن أكون معها . . هكذا . . ليس إلاّ . . وما عرفتها ندمت أو قلقت ، أو عنيت بأن تمدَّ عينها إلى الغد المحجوب ، وما عسى أن يكون حالها فيه . وإنى لأحاول أن أحملها على تدبر هذا الغد ، فتأبى إلاّ أن تصدق عنه وتعرض ، لا يأسًا منه ، ولا مجازفةً ، بل إنها راضية قانعة ، وما أكثر ما قلت لها إنها تضيّع شبابها معى ، وأنها لتعيرنى من حرارته ، ولكنها لا تستطيع أن ترد علىَّ شبابى بما تنفث فىَّ من حرارة شبابها . . » .

ومع ذلك فلم تكن (ميمى) هى الأولى ، بل سبقتها (عايدة) ، وسبقتهما (تحية) التى تزوجها ، وأنس إليها وأنست إليه . . وإذ كانت حياته قد اتصلت مع (تحية) هينة لينة ، وإنْ لم تخل من متاعب ، فإن حكايته مع (عايدة) ما لبثت أن انتهت ، إذ وافتها منيتها وهى ما زالت فى رَيِّقِ الشباب[2] . . ويصف كاتبنا هذه اللحظات فيقول :

« ووجم إبراهيم لمّا جاءه نعيها . فقالت له تحية وهى تربت له على كتفه : اسمع إنى لم أكلمك فى هذا قط ، ولكنى أقول لك الآن إنى آسفة ، آسفة من أجلها ، والموت حسم ، فَاطْوِ أنت الصفحة .

---

(١) من رواية المازنى : إبراهيم الثانى ـ ص ٧ ، ٨ .

(١) رَيِّق الشباب : أوّله . [انظر : المعجم الوسيط ـ مادة « راق »] .

قال : ولكنها لم تكن صفحة . . ليست صفحة فى حياتى . . هنا خطؤك . إنها كانت كتابًا كاملاً ، ولكنه خُطِفَ من يدى ، وأنا ما زلت أجيل عينى فى صفحاته الأولى . أوه أظن أنى أقول كلامًا سخيفًا ! لم يعد فى رأسى عقل . كل ما أشعر به أو أدريه أنه لم يكن ثَمَّ من بأس لو بقيت هذه السكينة . . هذا الموت ثقيل . . أكاد أرتاب فى حكمة الحياة والموت . فى كل شىء . . لا . . ينبغى أن أكفَّ عن التفكير فى أى شىء اليوم .

ففهمت (تحية) ـ وعذرت ـ وكانت تعرف تلف أعصابه وما عانَى فى سنوات طويلات من عذاب المرض .

وما أكثر ما تفهم وتعذر المرأة الطيبة المخلصة الرحيمة ، ولعلها أجمل وأروع ما فى الدنيا » .

وبعد ذلك يقول : « ثم كانت ميمى . . وهى طراز آخر من الأنوثة ، لا تشابه تحية ، ولا تُشاكل عايدة ، شبابها ريَّان ، وجسمها بَضٌّ فى نصاعة لون ، ووجهها كأنه يترقرق فيه ماء الحياة من نضرة النعمة . . رشوف ، عبقة، لبقة ، لينة فى منطقها وعملها ، ناعمة فى ملمسها ، مطواع ، لا كِبْرَ بها ولا تكلف ، تتجمع أنوثتها فى عينيها الدعجاوين ، وتنطلق منهما حين تبتسم فتضيقان . لا تعرف قولة (لا) ولا تحسن أن تقول (نعم) ، ولكنها تحسن أن تفعلها ، أبرز صفاتها البساطة والقناعة ، فهى تأخذ الأمور مأخذًا سهلاً ، وتتناولها من قريب ، وتقنع بالميسور . . » .

ومع ذلك ، فما لبث أن عمل إبراهيم على أن يمهد لميمى الزواج من (صادق) ـ قريبها الذى يحبها وإنْ كانت هى لا تبادله ذات الشعور ـ وعاد إلى تحية . . التى ما فتر عن الحديث عنها على طول صفحات الرواية ، حتى وهو يتحدث عن سواها : عايدة أو ميمى . . فكانت صفحة الختام هى هذه السطور :

« ودعا تحية فأقبلت واجفة القلب ، فابتدرها بقوله :

سنسافر فاستعدى .

فَرِيعَتْ ، وتوهمت أن مكروهًا حاق بأحد من الأهل . ولمح آية الجزع والفزع فى محياها ، ووخزته نفسه ، وهمست فى أذنه : يا شيخ حرام عليك ، فتبسم وقال : إلى الشام .

فوضعت يدها على صدرها وتنهدت ، ثم سألته : الشام ؟ .

قال : نعم بأسرع ما نستطيع .

قالت : ولكن الشام ؟ هذا . . كلا . ليس الآن .

قال : ماذا تعنين ؟ قلت إلى الشام سنذهب .

فهمست نفسه فى أذنه معجبة به راضية عنه : هكذا يتكلم الرجل برافو . .

قالت : ولكنك غير فاهم ، ليست المسألة أنى لا أريد السفر ، فإنى أريده وأشتهيه ولكن . . ولكن . . .

وتلعثمت ، واتقد وجهها كالجمرة ، وغضت من بصرها ، فدنا منها وأحاطها بذراعه وسألها بحنو : مالك ؟ .

قالت وهى مطرقة ، وشفتها تختلج : إنى . . إنى . . أنا حامل .

فقال على البديهة ، وبغير تفكير ، وذهنه متجه إلى الحُجَّة لا إلى الخبر : كلام فارغ . . أليس فى لبنان حوامل ؟ ثم تنبه فصاح بها : إيه ؟ ماذا تقولين؟ .

فضحكت ما وَسِعَهَا أن تضحك بعد أن أجرتْ لسانها بما كانت مستحيية كالعذراء من ذِكْرِه .

فانحنى عليها وقبَّلها ، وضَمّها ضَمًّا خفيفًا ، وجلس وأجلسها على حجره ، ومسح لها شعرها بكفه ، وأسندها إلى صدره وقال :

أظن أن أمى يسرها هذا ـ لو أمكن أن تدرى .

قالت : فى الصباح نذهب إليها ونخبرها .

قال : ثم إلى الشام .

قالت : إذا شئت .

أغمض عينيه . وذهب يتصور أنه يوشك أن يصبح أبًا . وذهل حتى عن (تحية) على حجره ، فغمزته نفسه وهمست : لا تنس من فرحتك أن تكتب إلى ميمى .

فقال بضجر وصوت عال : كيف يمكن أن أنسى ؟ .

فاستغربت(تحية) وسألته : تنسى ؟ تنسى ماذا ؟ .

فتنبه ، وسخط على (نفسه) التى كادت توقعه فى ورطة ، قال : لا شىء . أحسبنى كنت أفكر فى هذا . . كل جديد من الأمر يتطلب جديدًا من التفكير . .

فضحكت ونهضت من حجره ، وقالت وهى تسوى خصل شعرها : «هذا دأبك أبدًا . . لا يمكن أن تتغير . . » .

فحدق فى وجهها وقال : « بل أنا أتغير . . كل ساعة . . وقد تغيرت الآن . . منذ لحظه . . فلو أنى . . . » .

« ليس فى عينى . . . » .

ومالت عليه ولثمته : « ولا فى قلبى » .

ولعل الصورة لا تكتمل إلاَّ إذا عدنا إلى الحديث عن الأم . . إنها مازالت

له هى الملاذ والمعاذ ، وظلت معه تقاسمه حياته وفكره ، وكانت لزوجه خير أم . . ويصف هذه العلاقة بهذه السطور :

« وعاش إبراهيم مع (تحية) سنوات ، وفيًّا لها بالعين والقلب ، وكان يطوف ويعمل ويكدّ ، ويعود إلى البيت فيلقى إليها بما أفاد من مال ، وكان ما يكسب من الرزق يجيئه من هنا وهاهنا ، وبين بعضه والبعض الآخر فترات تطول وتقصر ، ولكنه فى جملته ـ وبفضل تدبير أمه ثم تحية ـ وافٍ بالحاجة ، كافٍ لستر المظهر . وكانت أُمه هى ربة بيته ، وظلت كذلك زمنًا بعد زواجه ، فلما أنست من (تحية) الرشد ، وشامت من سيرتها الخير ، ألقت إليها بالزمام آمنة مطمئنة ، ولم تجشم نفسها حتى عناء الإيحاء والتوجيه، ووكلت كل شىء إلى ذكائها وفطنتها وعقلها وحكمتها . . وكانت كبيرة السن ، ضعيفة القلب ، فأتيحت لها الراحة التى تعذرت قبل زواجه ، ووسعها أن تقول لتحية يومًا : الآن أستطيع أن أودعكما وأنا سعيدة قريرة العين ، فإنكِ كنز ظفر به ، ووقع عليه إبراهيم ، وأرجو أن يكون رأيك أنه أهل له ، على أن فى يدك أن تجعليه كذلك ، وكما تحبين ، والرجال يحبون أن يكونوا سادة ، ولكنهم يكونون بين يدى المرأة أطفالاً رُضَّعًا .

وجاء يومٌ آذنت بفراقها ، وكانت (تحية) وحدها فى البيت ، فامتنع صبرها ـ على فرط تجلدها ـ لهذا التوديع الذى كانت تعلم أنه لابد آتٍ ، وانحدرت العبرات ، واضطرمت فى أحشائها نار أليمة! . . » .

صور عديدة حُشدت بها الرواية ، التى ضمت أحاديث عن هذه العلاقات التى تعددت ، لتعود الحياة من بَعْدُ إلى سيرتها الأولى : زوجان يواجهان الحياة وهما يستقبلان الذرية الصالحة التى سوف يتغير معها طعم الحياة بكل ما تحمل من مشاغل وهموم ومشاكل . . !

وهذه الصفحات التى تطالعنا بها رواية (إبراهيم الثانى) تثير نفس التساؤلات :

ـ إذا كان إبراهيم الثانى هو (إبراهيم الكاتب) فهل هما إبراهيم المازنى ؟

ـ وإذا كان الأمر كذلك . . فهل نرى كاتبنا يتحدث عن تجارب شخصية؟

ـ وهل ترى هذه الأحداث مرت به حقيقة وواقعًا ؟

ولا نجد داعيًا لمحاولة البحث عن الإجابات الصادقة عن تلك الأسئلة . . وقد يكفينا فى هذا المقام أن نقرر أن المازنى فى روايتيه كان يستوحى ولا شك ما مَرَّ به من أحداث ، ويستلهم ما عاشه من تجارب ، وإنْ كان ينقل ـ فى بعض الأحيان ـ عن واقع عرفَه وعاشَه ـ إلاَّ أن لنا أن نضيف أنه إنما يفعل ذلك كله بنظرة الفنان ، وروح الشاعر ، وقلم الروائى ، وهو من ثَمّ إذ يروى ما يروى ، فهو ليس (شاهد رؤية) يدلى بشهادته ، وإنما هو كاتب يستلهم الواقع ، ويستوحى التجارب ، ويستمد من ذلك كله زادًا يلهمه ما يبدع قلمه من صفحات ، ويمده بما يروى من أحداث ، ويرسم من صور، دون أن يقيده سوى دواعى الفن والإبداع ، وعلى ذلك ، فإن كانت أحداث روايتيه فيها من الواقع ، فإنها ليست جميعها من الواقع ، ففيها من نوازع الفن ، ومن ضرورات الإبداع ، ومن موجبات حسن الرواية ، وجمال التصوير ـ بل مسايرة المنطق فى كثير من الأحيان ـ ما يبعد بها عن الواقع كثيرًا، وإن كان ارتباطها به يظل ظاهر الأثر ، ذا تأثير مّا ، يقوى حينًا ويضعف فى معظم الأحيان . . ومن هنا فليس لنا أن نزعم أننا يمكننا أن نضع أيدينا على الحقائق الثابتة فى حياة المازنى العاطفية من واقع دراستنا لروايتيه ـ أو رواياته جميعًا ـ فذلك أمر لا يمكن الوصول فيه إلى قول فصل ، وأقصى ما يقال إنها تعطى ملامح من تلك الحياة ، ولا تزيد على أن تومىء إلى بعض أحداثها مغلفة ـ أو مزودة ـ بإضافات تخفى الحقيقة ، بل تكاد تزوِّر الواقع .

ومن هنا فليس لنا أن ندين سلوك شخصياتها إذا ما أردنا أن ندين مؤلفها، وإنما كل ما لنا هو أن ننظر إلى (الشخصية) موضوع الدراسة فى إطار الفن نفسه ، وليس فى إطار (حياة المازنى) ، اللهم إلاَّ إذا قلنا إن فن المازنى فن متميز ، فهو فن (مازنىّ) خالص ، له معاييره الخاصه به ، وسماته التى ينفرد بها . . وبهذا القول وحده نخلص إلى أننا بإزاء أعمال فنية متميزة . . وواجبنا أن نعود إليها دارسين محللين ، على أن نكون منصفين غير متحيزين . . وبهذه الروح وحدها سوف ننصف أديبنا الرائد دون أن نبخسه حقه ، ودون أن نحصره فى إطار تيارات مستحدثة ، وكأنما الأمر يقتضى أن كل مستحدث لا يقوم إلاَّ على أنقاض ما سبقه . . وهذه غاية الظلم ـ والجهل أيضًا .

المازنى وعالم القصة القصيرة :

وللمازنى العديد من مجموعات القصص القصيرة . وقد نُشرت جميعها فى العديد من الصحف والمجلات التى كان يكتب فيها . . وبعض هذه المجموعات لا تضم إلاَّ قصصًا قصيرة ، وإن امتزجت بالصور القلمية ومنها :

ـ صندوق الدنيا .

ـ خيوط العنكبوت .

ـ فى الطريق .

ـ ع الماشى .

وبعضها الآخر ورد ضمن كتاب أو أكثر تضمَّنَ مقالات أخرى فى مواضيع شتى، مثل كتابه (قبض الريح) الذى ضم إلى جانب العديد من المقالات النقدية والاجتماعية ، بعض الصور القلمية والقصص القصيرة . .

وكذلك كتابه (من النافذة) الذى وإنْ احتوى فى فصوله الأولى على قصة ـ اعتبرناها رواية ـ فإن سائر فصوله إنما هى مقالات اجتماعية ، وصور قلمية .

وللمازنى كذلك كتاب سبق نشره ، وهو (الرحلة إلى الحجاز) ، وله كتاب ـ وربما أكثر من كتاب ـ عن رحلتيه إلى العراق وإلى الشام ، وإنْ كنا لم يتح لنا الاطلاع عليهما ، فهما لم ينشرا بعد ، وإن كنا نأمل أن يأتى قريبًا اليوم الذى يظهر فيه هذان الكتابان ـ أو أحدهما على الأقل ـ إلى عالم النور .

وسوف نلقى فيما يلى نظرة على أسلوب المازنى القصصى لنتتبع ذلك بعرض لبعض قصصه القصيرة .

نظرة إلى عالم المازنى القصصى :

وربما جاز لنا أن نقرر أن قصص المازنى القصيرة تجمعها عدة سمات . . لا نقول إنها تظهر بنفس الدرجة فى كل قصصه ، ولكنك لا تخطئها فى معظم قصصه :

وأول هذه السمات حرصه على تطعيم القصة بالعبارات المرحة حينًا ، والتعبيرات الساخره أحيانًا أخرى ، فأسلوبه بارز على طول قصصه ، دالّ عليه، يميز كتاباته ، حتى ليمكّن القارىء أن يتعرف عليها فى يسر وسهولة .

ومن هذه السمات أيضًا تخيره للجوانب اللافتة للنظر من الحدث ، واختياره لِلَّحظات التى يتعرض لها ويعرضها . . وهو دائماً اختيار موفق ومحبب فى نفس الوقت .

ومنها أيضًا بسطه فى الحكاية ورواية الأحداث ، حتى لكأنه يتحدث إلى صديق يحكى له عن أمور مرت به ، ولكن روايته تأتى على نحو جذّاب

وآسِرٍ لا يدع لك فرصة للتململ ، أو إرجاء إكمال قراءة القصة إلى وقت آخر .

وهو فى قصصه لا يلتزم دائمًا بالقواعد التى وضعها النقاد لمسار (القصة القصيرة) ومع ذلك فيخيل إلىّ أنه وضع لنفسه قواعد أخرى التزم بها بحيث لا يقدم إلاّ قصصًا مشوّقة ، مصاغة على نحو لافت وجذّاب ، وتتنامى أحداثها على نحو تلقائى لتصل فى النهاية إلى خاتمة ليس من المهم دائمًا ألاّ تكون متوقعة .

وعلى ذلك فإن لنا أن نرى أن نهجه القصصى كان متميزًا ومتفردًا ومبتدعًا فى نفس الوقت ، ونادرًا ما يبلغ حد الإملال . . فهو دائمًا يكتفى باللقطات البارزة ـ والموحية فى نفس الوقت ـ والتى تتكامل فيما بينها لترسم لنا الصورة التى أراد تقديمها وعرضها .

وقد تكون قصصه لا تحتوى إلاّ أحداثًا عادية ـ أو كالعادية ـ فليس فيها ما يفجؤك ، أو يروعك ، وليس فيها ما يثير أو يلهب الأحاسيس ، ولكنها ـ ولا شك ـ تحتوى على ما يسعد القارىء ويمتعه .

وهو ـ بعد ـ لا ينقل إلاّ من الحياة ، ولا يرسم إلاّ صورًا من الواقع ، ولكنه الواقع المنتقى بعناية ، والمختار على نحو فنىّ ، يكفل أن يكون جذّابًا وجاذبًا .

وهو ـ قبل ذلك كله ـ القاص الرائد ، فما سبقه من أعمال فى اللغة العربية لا تعدو أن تكون محاولات لم يكتمل معظمها .

وواقعيته ليست هى الواقعية التى ترهق قارئها بنقل العديد من التفاصيل دون أن تفلت شيئًا ، وكأنما همّ الكاتب أن ينقل صورة فوتوغرافية للواقع الذى يصوره . . فالمازنى على العكس من ذلك ، يقتصر فى رواية التفاصيل على ما يخدم فكرته ، ويكمل ملامح الصورة التى يهدف إلى تقديمها .

وقصصه ـ فى الغالب ـ لا تشغل كثيرًا بأمور الفكر ، أو نواحى الفلسفة ، بل تحرص على أن تتناول من الحياة جوانبها السهلة ـ أو على الأقل المعروفة للناس ـ وكذلك تبعد عن الشذوذ أو الخروج عن المألوف ـ بصورة لافتة ـ ومع ذلك فلا يمكن أن تقدم فى كل قصة فكرة طريفة ، أو نظرة صائبة ، أو رأيًا حكيمًا . . أو على الأقل : صورة موحية ومعبرة فى نفس الوقت !

وكثيرًا ما يحرص فى قصصه على استعمال ضمير المتكلم ، حتى ليخيل إلى القارىء أنه هو بطل كل تلك الأحداث ، وصاحب ما يحكى من الروايات ، ولا نشك فى أن كثيرًا مما كتب مستمد من تجاربه ، ومع ذلك فليس لنا أن نقرر أن ما حكاه ـ كله ـ قد وقع له كما رواه ، وإلاّ كنا بصدد تاريخ ، وهو ما حرص المازنى على الابتعاد عنه . . إن ما قدمه ـ حتى عن نفسه ـ إنما قُدّم بصورة فنية ، وعلى نحو فيه من الإبداع الكثير ، ومن ثَمّ فهو يخدعنا إذا توهمنا أننا نطالع أحداث حياته ، وإنْ كنا لا نشك أنه ما كتب إلاّ مستوحيًا تلك الأحداث .

والشىء اللافت . . حرصه على أن يصف بطلات قصصه وصفًا لا يفلت شيئًا من ملامح الوجه ، أو نظرات العيون ، أو دقائق القد ، بل لا يهمل حركة اليد ، أو تثنى الخصر ، أو تموُّج الأعطاف ، فإذا ما رَوَى الحديث الذى يدور لم يَفُتْهُ أن يتحدث عن لهجة الصوت ، ونغمة الحديث ، ووقع الكلمات على الأذن ـ أو فى القلب ـ وقد يجاوز فى ذلك الحدّ المعقول ، ولكن صوره تأتى فى الغالب ـ مقبولة وطريفة لا يُصاب قارئها بأى ملل .

ولعل خير ما يبرز ذلك كله ويوضحه هى هذه السطور التى نقتطفها من بعض إبداعات المازنى .

وسوف يكون من المتعذر ـ بالطبع ـ أن نتتبع قصصه القصيرة لنعرضها ، وليس مرجع ذلك فقط إلى كثرتها وتعددها ، وإنما مرجع الصعوبة فى المقام

الأول هو أن تلخيص القصة القصيرة لن يكون مجديًا ، ولا ممتعًا ، ولا كاشفًا عن أعماقها ، فالقصة القصيرة - فى رأيى - عمل متكامل لا يمكن إدراك أبعاده إلاّ بقراءته كله . . فمثل هذه القراءة هى التى تعطى القارىء الإحساس بقيمة العمل ، وتتيح له الفرصة للتعرف عليه ، ولتذوقه . . على أن ذلك لن يحول دون الإشارة إلى بعض هذه الأعمال ، واقتطاف بعض فقرات منها ، ولا نزعم أن ما نشير إليه هو أفضل إبداعات المازنى ، بل جميعها مما يدخل ضمن مستواه المألوف .

ومن مجموعاته القصصية : خيوط العنكبوت ، ويفهم من إهدائها أنها ظهرت فى أبريل سنة ١٩٣٥م ، أى منذ أكثر من ستين عامًا .

ومن قصص هذه المجموعة قصة تحمل عنوان (التدخين) ، ومن هذه القصة ننقل ما يلى :

« . . كنت مرة أسير فى الصباح على جسر قصر النيل ، كان ترام الجيزة ينتهى عنده - فى الجزيرة - وكنت يومئذٍ مدرسًا فى المدرسة السعيدية الثانوية ، فأردت أن أدرك الترام فعدوت ، فنهجتُ وانقطع قلبى ، واضطررت أن أقف لأستريح ، وشقَّ علىَّ أنى فى شبابى لا أستطيع أن أجرى مائة خطوة ، واغرورقت عيناى بالدموع ، فأخرجت علبه السجائر وعلبة الكبريت وألقيتها فى النيل - للسمك ، وتوكلت على الله ، واستأنفت السير .

وظللت يومى هذا فرحًا مغتبطًا بجدة العزم وصرامة الإرادة .

وما لقيتُ أحدًا من معارفى أو حتى ممن لا أعرف إلاّ أخبرته أنى كففت عن التدخين ، حتى عامل الترام قلت له وأنا أناوله القرش :

اليوم رميت السجاير فى النيل . . يا أخى ماذا كنت صانعًا غير ذلك ؟ تصور شابًا مثلى يجرى مائة متر فتنقطع أنفاسه ! هل تدخن أنت ؟

قال : إى والله مع الأسف !

قلت : لا لا . . هذه جناية على نفسك . . روح ارم هذا الدخان فى النيل .

قال : لا أستطيع .

قلت : كيف لا تستطيع ؟ ألا ترانى أمامك ؟ ألم أستطع ؟ لماذا لا تكون مثلى ؟

قال : كم يومًا لك ؟

قلت وأنا أحك رأسى : أ . . . أ . . . . ربع ساعة .

فضحك وقال : أوه ! آه ! ربع ساعة ؟ ابقَ قابلنى .

قلت : كلام فارغ ، انصرفت عنه نادمًا على الكلام معه .

ولم أشعر فى ذلك اليوم بالرغبة فى التدخين ، لأنى - كما أسلفت - كنت فرحًا بنفسى ، مسرورًا بإمضاء العزم ، وفى اليوم الثانى أصبحت مكتئبًا ، كاسفَ البال ، مطأطىء الرأس ، أجرّ رجلىَّ إذْ أمشى ، ولم آكل شيئًا قبل الخروج كما كانت عادتى أن أفعل ، وشعرت بعطف عجيب على نفسى ، وعلى الدنيا كلها ، ورقّة فى قلبى لا عهد لى بها ، فما سألنى أحد فى ذلك اليوم شيئًا إلاّ أسرعت فى إجابته إليه ، ولقينى متسوّل ويده مبسوطة ، فوضعت فيها نصف ريال ، وطلب زميل أن يستعير منى كتابًا فوعدته بأن أحمل إليه مكتبتى كلها فى الغد ، ودخلت فى المساء مقهىً فألفيت صديقًا لى يشرب رطلاً - فما يقلّ عن ذلك - من الجِعَة ، فدفعت عنه الثمن ، فأغراه هذا الجود بأن يسرَّ إلىّ أن يكون مسرورًا شاكرًا إذا أقرضته جنيهًا يرده فى أول الشهر الجديد ، فأشرق وجهى وقلت :

- جنيه ؟ جنيه واحد ؟ هذا ظنك بأخيك ؟ يا سبحان الله !

قال : أتظن أنه كثير عليك ؟ إذن اجعله نصف جنيه . . وسأردّه والله !

فقلت : لا . . لا . . إنى أستقله ولا أستكثره ، لقد كنت أنتظر منك أن تكون أحسن بى ظنًّا من أن تكتفى بجنيه .

قال ـ وقد لمع فى عينيه نور البِشْر ـ :

نقول جنيه ونصف ؟ . . أو . . ربما استطعت أن تستغنى عن اثنين مثلاً . . ؟ .

قلت : هل يكفيك خمسة ؟ أو عسى أن تكون حاجتك أشد . . فلنقل عشرة جنيهات . . قانع ؟ حسن إذن ! سأسبقك إلى البيت ، فَمُرَّ بى لأعطيكها .

وخرجت أمشى عائدًا إلى البيت ، فقابلت صديقًا دعوته إلى العشاء فى منزلى أيضا ، فلما صِرْتُ فى غرفتى عاودتنى الكآبة ، وثقل علىَّ الإحساس لأن كل شىء ينقصنى ، وضاق صدرى ، وساورتنى هموم غامضة ، فجعلت أتمشى وأنا مضطرب ، وكانت حركاتى جادة ، عنيفة ، ولمحت كرسيًّا فى زاوية ، فسرتُ إليه ، فجعلت أركله حتى قذفت به خارج الغرفة ، ودخلتْ الخادمة عَلَىَّ تسألنى ماذا صنع الكرسى ؟ وبأى شىء استحق هذا منى ؟ فقبضتُ على عنقها ، وكدت أخنقها ، فلولا أنها تخلصت ـ لا أدرى كيف؟ـ لما تركتها إلا ميتة ، ولم تبق فى نفسى ذَرَّة من العطف على أحد من خلق الله ، وتمنيت كما تمنى نيرون ـ أم ترى غيره الذى تمنَّى ذلك ؟ ـ أن يكون لأبناء آدم جميعًا عنق واحد ، فأضربه بالسيف ، ونظرت إلى الكتب على رفوفها فعبست ، وأقسمت لأؤدبن ذلك الذى اجترأ أن يستعير أحدها .

وصفق فى فناء البيت صاحبى الذى وجدته فى البار ، ووعدته أن أقرضه

ـ أو أهبه ، فقد كان المؤدّى واحدًا ـ عشر جنيهات ، فأشرفت عليه من النافذة وسألته عَمّا يريد . فقال :

هاتِ الأمانة يا بطل ، وأكثر الله من أمثالك !

قلت ، وأنا أتميز من الغيظ : أى أمانة يا حمار ؟

فقال ، ووجهه إلى فوق ، ويسراه تسند طربوشه من الخلف لئلا يقع :

ـ الله يسامحك ، طيب ، هاتِ بقى .

قلت : ألا تنوى أن تخرج ؟

قال : لا بأس . إذا كنت تريد أن تنزل فارْمِ الأمانة فى منديل .

فتناولت كرسيًّا قريبًا وقذفته به ، فخرج يعدو وهو يسب ويلعن .

وبعد برهة دخل صاحبى الثانى الذى دعوته إلى العشاء ، وصفق كالأول ، فأطللتُ من النافذة ، وفى عزمى أن أُلقِى على رأسه زهرية فأحطمهما معًا ، ولكن عينى أخذت سيجارة فى فمه ، فارتدت عن النافذة ، وهبطت إليه كالحجر الساقط ، ودفعت يدى فانتزعت السيجارة من فمه ، وارتميتُ على كرسى ، وقعدت أدخن ، فنظر إلىّ مبهوتًا ، ودنا منى ، وهَمَّ بأن يقول شيئًا ، فرفعت يدى وقلت :

« هس . . ليس الآن . . انتظر لحظة حتى أدخن هذه السيجارة . .

وجعلت نفسى تعود إلىَّ شيئًا فشيئًا ، وأسارير وجهى تنبسط ، وفرغت السيجارة فقلت :ـ هاتِ أخرى . . هاتِ بالعجل .

فلمّا دخنت نصفها ابتسمت راضيًا عن نفسى ، وعن الدنيا ، ونهضت أقول :

ـ أهلاً وسهلاً . . يا ألف مرحب . . تفضل .

وصعقت الخادم المذعورة ، وفى ظنها أنى سأبقر بطنها على الأقل ، ودخلت على حذر ، غير أنها أبصرتنى أضحك وسمعتنى أمزح ، فاطمأنت، وناولتها ريالاً ، وقلت :

هاتِ سجاير . . هاتِ به كله . . حالاً » .

وهكذا يرسم المازنى صورة لأثر السيجارة ، وما تسببه محاولات الإقلاع عن التدخين من انعكاسات نفسية تبدو مظاهرها فى كل تصرفات من يحاول ترك تلك العادة ، ولا ندَّعى أنه يتحدث عن تجربته الشخصية ، ولكنه كان يستوحى ولا شك بعض تجاربه فى هذا الصدد ويصوغها هذه الصياغة الموفقة التى تجمع بين حُسن العرض ، وتسلسل الأحداث ، وعمق الفكاهة فى ذات الوقت ، وهو يرسم صورة حية ، نابضة ، معبرة ، ومحببة لا يمكن لمن يقرؤها أن ينساها ، أو تغيب عن ذاكرته ، وبصفة خاصة إذا كان ممن تأصَّلت فيهم عادة التدخين . . !

ونجد أنفسنا مضطرين إلى الاقتصار على هذه المقتطفات بحسبانها تعطى مثالاً لما أردنا إبرازه ، لأننا لو ذهبنا نتتبع كل قصصه لاضطررنا إلى نقلها جميعًا ، ولكننا نختم حديثنا عن قصصه بأن القارىء يشعر بأن المازنى لا يفتعل هذه القصص ، إنما هو يسح بها سحًا (كما قيل بالنسبة لقدرته الشعرية) . . فهى تصدر عنه فى يُسر وبساطة وتلقائية بلا أدنى افتعال ، ولا تلفيق ، بل كأنه يروى عن واقع عاشه ، وحوادث مرت به . . هذا إلى فنية الرواية ، وحسن الاختيار ، وطبيعة الحوار .

نقول هذا ، وأمامنا ـ ويتردد على مسامعنا ـ ما يسود الساحة من اتجاهات حديثة فى القصة القصيرة . . وكيف ينبغى أن تُصاغ ؟ وكيف يكون التعبير فيها ؟ وما هى الموضوعات التى ينبغى أن تتجه إليها ؟ إلى آخر هذه الاتجاهات المستحدثة التى تقوم على نظريات تحتاج إلى خبرات وجهود

ومعارف عديدة ليس لاستيعابها ، بل ليس لمجرد الاقتراب منها من سبيل ، بالنسبة لنا على الأقل ! فتلك ـ وأيم الحق ـ مهمة شاقة ، لا تقوى عليها طاقاتنا المحدودة ، ولا معارفنا القاصرة !!

وأقر وأعترف أننى حاولت كثيرًا فما أفلحت ، وما اقتربت ، ولم تنفتح لى حتى ولا طاقة تسمح لى بالدخول إلى هذه العوالم الجديدة من الأفكار والآراء . . والنظريات . . . !!

والمازنى غريب عن هذه العوالم هو الآخر . . فهو كاتب تقليدى لم يُحط بما جدّ من نظريات حديثة فى الرواية والقصة القصيرة . . بل لم يعرفها ، وكأنّى به وأنا أُحدثه عنها يقول : يا أخى دعنا من هذه النظريات ، ولا تصدِّع بها رُءوسنا ، وأمامك الحياة حلوة جميلة ، فاغتنمها وتملّها ، واقرأها ، فهى كتاب مفتوح أمامك ، وما عليك إلاّ أن تطالع صفحاته ، وسوف تبدو لك سطوره مفهومة متى خلّصت نفسك من إسار النظريات الجامدة ، فخير نظرية للحياة فى يقينى هى أن تحيا الحياة كما هى ، وأن تأخذها كما خلقها البارى يسيرة وبسيطة . . ومن المؤكد أنك متى أخذت الأمور على هذا النحو المبسط فسوف تسعد نفسك وأهلك ، وتبعد بنفسك عن عوالم معقده لا جدوى من الدخول إليها ، ولا فائدة ترجى من الانشغال بما فيها من أمور معقدة متراكبة ، تضيع معها بهجة الحياة ، ويختفى بسببها جمال الوجود . . وما أحرانا أن نبحث عن البهجة ، ونحتفى بالجمال دون أن نعقد الأمور ، أو نتوه فى ضباب الفلسفات والنظريات . . !!

***

المازنى والصور القلمية :

وهذه الصور التى يجيد المازنى رسمها وتقديمها للقارىء تكاد تنطق بملامح الصورة ، وتتحدث بلسان صاحب الصورة ، وتجسد الحَدَثَ

والمعنى على نحو واضح الدلالة ، معبرًا أصدق تعبير ، وبأجلى بيان ، وبكلمات يسيرة بسيطة ، لكنها ناطقة . . وليست هذه الصور بمقتصرة على كتابه (صندوق الدنيا) ، بل إنك تجدها منبثة فى كل كتاباته . لقد جمع بعض الناشرين عددًا من المقالات التى كتبها المازنى وأعادوا نشرها ـ بعد وفاته بفترة طويلة ـ تحت عنوان : (سبيل الحياة) . وإنك لتجد فى هذا الكتاب ـ كما هو الشأن فى سائر كتب المازنى ـ العديد من هذه الصور القلمية اللافتة .

ولنقرأ معًا هذه السطور التى كتبها المازنى تحت عنوان : (بلدتى القاهرة)، حيث يتحدث فيها عن بعض ذكرياته على نحو يجمع بين الحديث الشخصى ، والحديث الموضوعى فى الوقت نفسه .

***

بلدتى القاهرة

« كان ينبغى أن تكون بلدة (كوم مازن) ـ مركز تلا ، على ما أظن ، من أعمال المنوفية ـ مسقط رأسى . فإن فيها أهلى وعشيرتى . . ولكن المقادير أتت بخلاف ذلك . فلا رأسى سقط فى (كوم مازن) ، ولا كتب لى قط أن أزورها أو ألمَّ بها .

وشاءت إرادة الله ـ لحكمة ولا شك ـ أن أكون قاهريًّا ، مولدًا ، ونشأةً ، وإقامةً ، وأنا أطوف ما أطوف ثم آوى إلى القاهرة ، ولا يخطر لى أن هذه البلدة ـ الطيبة على ما سمعت ـ التى نزل فيها أجدادى ونسبوها إليهم ، وكنت أظن لفظ (كوم) محرّفًا عن (قوم) ، ولكن الدكتور زكى مبارك ـ وهو أدرى ـ يقول إن الصواب (الكوم) بالكاف ، وأنه لا تحريف هناك ، لأن أهل القرى التى تقع على النيل ، كانوا يؤثرون الأرض المرتفعة حتى لا يغمرها الماء فى موسم الفيضان .

والقاهرة التى عرفتها ـ أو قل الرقعة التى عرفتها منها ـ فى صدر حياتى ، شىء مختلف جدًّا عن هذه القاهرة الحديثة التى أشابتنى . . والرقعة التى أعنيها هى التى لا تزال معروفة بأسمائها ، وإنْ كانت معالمها القديمة قد عَفَى عليها الزمن ، وهى تشمل أحياء الجمالية ، والأزهر ، والسكة الجديدة، وغيرها مما يتفرع عليها . . .

وكان الترام قد ظهر فى قلب المدينة ، ولكنى لم أره إلاّ بعد أن اجتزت مرحلة التعليم الابتدائى ، ودخلت المدرسة التوفيقية الثانوية ـ أقول لم أره قبل ذلك ، ويحسن أن أضيف أنى لم أركبه إلاّ بعد ذلك بسنوات ، لا لأنهم خوفونى منه ـ وقد حاولوا تخويفى فعلاً ـ بل لأننا كنا افتقرنا بعد موت أبى ، واستطاع قريب لى أن يحصل لى على (أبونيه) مجانى لعربات (سوارس) ، وهى مركبات طويلة ضيقة تتسع لعشرة ركاب أو خمسة عشر ، ويجرها بغلان أو ثلاثة بغال ، وتستطيع أن تسبقها وأنت راجل !

وكانت الحمير والبغال ، و (عربات الكارو) التى لاتزال لها بقية لا يستهان بها ، هى وسائل النقل والتنقل . فأمّا البغال فكان يركبها (الذوات) والموسرون من طلاب العلم فى الأزهر .

وأمّا الحمير فيتخذها (أولاد البلد) وبعض أهل الوجاهة . وكانوا يعنون بتدريبها، ويحرصون على أن يبدو الحمار فى حفل من الزينة ، فالسرج بديع الفرش، واللجام مُحَلًّى بالفضة . فإذا كان يوم الأحد ـ وهو يوم الزيارة الأسبوعية لمسجد السيدة نفيسة ، أو يوم الخميس ، وهو يوم زيارة (المحمدى) بالعباسية ـ لبس أصحاب الحمير أفخر ما عندهم من الثياب الحريرية ، وامتطوا هذه الحمير المضمرة المحلاّة ، وخرجوا فى موكب باهر يتسابقون ، ويعرضون مزايا دوابهم ، ونقف نحن الصغار على جانبى الطريق نتفرج ، ونعجب ، ونتمنى على الله أن يرزقنا حميرًا كهذه .

وكانت الحارات الواسعة ـ نسبيًّا ـ ملعبنا نحن الصغار . وكنا نعرف ونزاول من الألعاب أربعة ضروب : فأمّا الصغار جدًّا فيلعبون (البلى) ـ وهى كرات صغيرة فى حجم الفولة إلاّ أنها مستديرة ـ وأمّا الأوساط فيلعبون (النطة) ، وهى القفز من فوق أحدهم وهو منحنٍ ، وأمّا الكبار فيلعبون الكُرَةَ أو يتسابقون ، وكانت الكرة هى (كرة الشراب) ، أمّا الكرة (الأمبوبة) أى المنفوخة ، فما كانت لنا قدرة على اقتنائها ، لأن (مصروف) الواحد منا كان لا يزيد على خمسة ملاليم ، وكانت كافية للب والحمص والفول السودانى ، ولم نكن قد سمعنا فى ذلك الزمان بالشيكولاتة !

وكان لكل حى (فتواته) ، وكل جماعة من الفتوات تهاجم كل جماعة أخرى ، أو تثأر لنفسها ، وكنا نحن الصغار نستطيع أن نعرف سلفًا أنباء الغارات المنوية ، فنحذر فتوات حَيِّنا ، ونخرج لنتفرج ، أو نتفرج من النوافذ ، على العصى وهى تهوى على الرءوس ، ونشترك فى المعركة (بالرايقة) من النوافذ ، والجرىء منا ينزل إلى الشارع ويخوض القتال ، على ألاّ يصيب إلاّ خصوم حَيِّه .

على أن حياة الصغار لم تكن كلها لهوًا ، فقد كنا نصلى الفجر فى مسجد الحسين ، ونقيم الصلاة فى مواقيتها فى البيت ، ونحضر الأذكار ، ونحفظ الأوردة ، ونذكر مع الذاكرين . وفى الصيف ـ فى الإجازة المدرسية ـ يرسلنا أهلنا إلى (الكُتّاب) فى الأزهر لنحفظ القرآن الكريم .

وكانت على بعضنا واجبات عجيبة ، فكنت أنا ـ مثلاً ـ مكلفًا أن أعلف لجدى حماره ، وكان ـ جدى لا الحمار ـ ضعيفَ النظر ، فكنا نجىء له بالحمار مسرجًا ملجمًا فيركبه ويتوكل على الله ، ويخرج من جيب القفطان (التغييرة) أو الملزمة ويدنيها من وجهه ويقرأ ، حتى يبلغ به الحمار باب (المزينين) ـ وهو أحد أبواب الأزهر ـ فيقف ، فيعرف جدى أنه وصل ،

فيترجل ، ويترك الحمار لمن يُعنى به . ويلقى درسه أو دروسه ثم يعود كما جاء !

فحدث ذات يوم أنى أهملت إطعام الحمار ، فجاع ، فلمّا ركبه جدى لم يذهب به إلى الأزهر ، بل كَرَّ به راجعًا إلى الإسطبل ، فلمّا ترجَّل جدى لم يجد ما ألف ، ولم يدر أين هو ؟ فما دخل الإسطبل قط !

وقد ضُربت فى ذلك اليوم علقة ـ لا من جدى ـ فقد كان أحنى علىَّ من أن يضربنى ـ بل من أخى الأكبر رحمه الله !

هذه هى القاهرة كما عرفتها فى حداثتى ، وهذه صورة مجملة ، وموجزة ناقصة للحياة فيها . أما القاهرة الحديثة فلا حاجة بى إلى وصفها ، لأن كل قارىء يراها ويعرفها» (١) .

ففى هذه السطور رسم المازنى صورة للقاهرة التى عرفها ـ وجاءت الصورة ناطقة مُعَبِّرَة ، لا تزدان فقط بالمعلومات الطريفة ، وما تبرزه من ملامح قد تخفى على أعين الكثيرين ، ولكنها تزدان أيضًا بتلك الروح الفكهة الساخرة التى تعبر عن القاهريين ـ أولاد البلد ـ أصدق تعبير ، وكأنى بالمازنى يقول : هأنذا أحد أولاد البلد أتحدث بلهجة أولاد البلد عن بلدتى القاهرة . . وما أحسبنى تجاوزت الحقيقة أو أخفيتُ جانبًا من الجوانب ، بل حرصت على أن أرسم صورة ناطقة ترجع بكم إلى ذلك الزمن الذى أتحدث عنه ، فتبرز أمامكم ملامحه ، وتحدثكم عنه حديث العارف به ، الذى عاش أيامه وبلاَ حُلْوها ومُرّها .

تلك هى سمة المازنى فى كل كتاباته وصوره القلمية . . وربما كان (يحيى حقى) يقاربه فى ذلك ـ فى بعض لوحاته القلمية ـ غير أن لنا أن نلمح الفارق بين الاثنين . فأنت تحس مع المازنى أنك مع شخص يأخذ الأمور

(١) كتابه : سبيل الحياة ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ ص ١٣

ـ فيما يبدو ـ باستهانة ، إلاّ أنها استهانة الواعى الذى لا يفوت عليه أمر ، وهو وإنْ كان يستهين ببعض الأمور فإن هدفه هو التهوين والتخفيف عن الآخرين ، فما تلمح فى سطوره قسوة ، ولا تطالع فى صورته ما يجرح أو يؤذى . . بل هو يقدم الصورة وكأنه يقول : هذه هى الحقيقة ، علينا أن نسلم بها ، وأن نفيد منها ، وأن نعايشها ، ونتعامل معها ، ونفيد مما تقدم لنا فى ذات الوقت من فكاهة أو متعة أو سرور .

أمّا يحيى حقى فليست له سرعة المازنى فى التقاط الملامح ، ولا نظرته الشاملة التى لا تكاد تفلت ملمحًا ، ولا سرعة انتقاله من خصوصية الصورة إلى عمومية المعنى مثلما هو الأمر عند المازنى ، إذ يقف يحيى حقى وكأنه يرسم لوحة لشخصية محددة ، معالمها واضحة ، وسماتها معروفة ، وكل همّه أن يقيمها فى صورة تلفت النظر ، وتبقى فى الخاطر . وليس من شك فى أن له مقدرة على تقديم صور تنبض بالفكاهة ، وتقطر سخرية ، ولكن ذلك إنما يأتى على مهل وروية ، وبعد تفكير وتعديل ، وصياغة وإعادة صياغة ، حتى يصل إلى الصيغة التى يرتضيها ، والصورة التى يرضى عنها ، فما يقبل أن يورد كلمة زائدة ، أو معنى مكررًا ، فلكل حرف موضعه ، ولكل كلمة ضرورتها ، وهو فى ذلك يخالف المازنى الذى رأيناه يمضى مع قلمه تاركًا له كامل حريته فى القول ، بل كثيرًا ما يستطرد معه ، ولكنه مع ذلك لا يهمل ما يريد قوله ، والإبانة عنه . . وها نحن إزاء أسلوبين ـ ومنهجين ـ وإنْ كانا مختلفين فإنهما فى النهاية يعرضان صورًا قلمية فيها فن ، وفيها فكاهة وطرافة ومتعة . . وهى صور وإن اجتمعت فى هذه السمات فإنه لا يمكن الخلط بين ما يخص كُلاًّ من صاحبيها وما يخص الآخر ، فلكل منهما طابعه الذى يطبع إنتاجه ، ويميز فكره ، وهو طابع متميز يدل على صاحبه فى يسر وبساطة ، حتى ليمكن القول بأنه يندر أن يختلط إنتاج لأحدهما بإنتاج لأى

كاتب آخر بحال من الأحوال . . وتلك هى أسمى سمات التفرد والتميز فى ذات الوقت .

المازنى وكتاباته النقدية :

ربما كان الوجه الناقد هو أول وجه طالعنا به المازنى فى حياته الحافلة المنتجة المثمرة ، فما كانت دراسته عن الشعر ، وما كانت كتاباته عن حافظ إبراهيم إلاّ كتابات ناقد دارس متعمق ، وقد عرضنا من قبل لدراسته لحافظ ، وهى الدراسة التى تبرأ منها ، ومع ذلك فقد أنكر عليه الدكتور محمد مندور هذا التبرُّؤ (١) وكتب يقول :

« فى رأينا أن الكثير من ملاحظات المازنى الجزئية فى هذه المقالات الأخيرة من الكتيب يستحق الاعتماد ، كما أنه مما يشهد للمازنى بالفطنة وسلامة الذوق ، وسعة المعرفة بالشعر ، جيده ورديئه ، وبذلك نخلص إلى أن هذا النقد لا يمكن اعتباره كله هراء كما زعم المازنى ، وإن يكن العنف والتحامل والإسراف واضحة فى الكثير من أجزائه . . » .

ويمكن أن يقال : إن هذاالعنف ظهر كذلك فى نقده للمنفلوطى . . حيث وصف كتاباته ـ وأدبه ـ بأنه أدب الضعف والنعومة ، وأخذ على المنفلوطى إسرافه فى العاطفية إسرافًا يمكن تفسيره بالافتعال والنعومة والتطرى . . إنه ليتساءل :

« ماذا فى كتابات المنفلوطى مِمَّا يستحق أن يُعَدّ من أجله كاتبًا أو أديبًا ، إلاّ إذا كان الأدب كله عبثًا فى عبث لا طائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيوخنا المائتين يقول : إن فى أسلوبه حلاوة . ولو أنه قال : نعومة لكان أقرب إلى الصواب ، ولو قال : أنوثة لأصاب المحز . . » . . « ولست بواجد

(١) د. محمد مندور : النقد والنقاد المعاصرون ـ فصل المازنى ناقدًا ـ ص ١٣٦ .

شيئًا من هذه الحلاوة فى كلام المنفلوطى ، سواء فى ذلك شعره ونثره ، لأنه متكلف متعمل ، يتصنع العاطفة كما يتصنع العبارة عنها ، وقد أسلفنا أن وصف أسلوبه بالنعومة أقرب إلى الصواب ، ولكنه ليس كل الصواب ، لأنه متجاوز ذلك ، ذاهب إلى أدنى منه ، وليس أدنى من ذلك إلاّ الأنوثه، وهى أحط وأضرّ ما يصيب الأدب ، ولكنها مع الأسف تجوز على فريق من الناس يتلذذونها ويسيغونها ويعجبون بها ، ويبلغ من استحسانهم إياها أن يشجعوه ويقروه بالكدّ فى إبراز ما ليس أمثل منه للرجولة وأعصف »[1] .

وهكذا تجده يعنف بالمنفلوطى ، ويجرده من كل قيمة ، سواء فيما اتخذ من أسلوب ، أو عالج من موضوعات ، أو قدم من فكر .

وليس من شك فى أن هذا النقد ـ وقد قيل فى مطالع الشباب والسن غضة ، والآمال عريضة ـ قد تميز بالعنف ، والاندفاع ، وهو وإنْ كان صوابًا إلاّ أنه ليس كل الصواب ، فليس كل أدب المنفلوطى على هذا النحو، وليس أسلوبه سيئًا بهذه الصورة ، بل ربما كان العكس هو الصحيح، فقد كانت كتابات المنفلوطى متميزة بشاعرية العبارة ، ورقة الأسلوب مع فخامة الألفاظ ، وكانت جُمله وتعبيراته ذات وقع جميل على السمع ، حتى ليمكن حفظها وترديدها من الذاكرة فى يسر وسهولة ، ولا تزال كتبه تجد ـ حتى اليوم ـ إقبالاً وقبولاً . . وإن كانت موضوعاته كلها تميل إلى الحزن ، وإلى المبالغة ، وإلى وصف ما فى الحياة من آلام ، فإن هذه الموضوعات لتلذ للكثرة الكثيرة ، شأنها فى ذلك شأن الأغانى العديدة التى يشكو قائلوها من الظلم ومن الهجر ومن الفراق .

فالمنفلوطى فى نقد ـ أو نَظَر ـ المازنى مظلوم مظلوم . . وما أعتقد إلاّ أن المازنى قد رَاجَع نفسه ، وعدل عن هذه الآراء ، وآية ذلك أن المازنى لم يعد

---

(١) الديوان ـ طبعة دار الشعب ـ ص ٨٤ ، ٨٩ .

إلى الحديث عن المنفلوطى مرة أخرى بعد كتاباته عنه فى (الديوان) ، ولو أنه سُئل صراحة لقال ما قال عن شعر شوقى : لقد ظلمته . . فعنده من الجيد الكثير .

وللمازنى أسلوب فى النقد يقوم على المراوغة فى بعض الأحيان ، حينما يُطْلَبُ إليه أن يعرض ـ أو يتعرض ـ لكتاب ، ليس محل رضاه أو تقديره ، وهو فى نفسه لا يريد ـ أو لا يحب ـ أن يُغضب من طلب إليه . . ومن ذلك ما يقال من أن كتابته عن الأديبة (مىّ) كانت تلبية لرغبة صديق عمره ، وصفو روحه : العقاد . . وكان هذا الأخير ممن لهم علاقة طيبة ـ بل ربما كانت علاقة حب ـ مع تلك الأديبة . . وكان المازنى ـ على عكس ذلك ـ لا يرى فيما تكتب ما هو جدير بأن يحتل مكانة متميزة . . ومن هنا جاء نقده لكتابيها على النحو التالى :

« تلقيت كتابىّ الآنسة مى ـ الصحافة ، وظلمات وأشعة ـ فى ساعة نحس ، وكنت قد باعدت بينى وبين الأدب وطلقته ثلاثًا ، أو على الأصح، فترت عنه ، وضعفت عندى بداعته ، ثم قلبت القضية ، وعكست المسألة ، وحملت الأدب عيبى ، وزعمته أصل البلاء والداء العياء، وإذن فالنجاء منه النجاء . وفى الكتب ـ كما فى الناس ـ المجدود ، والمنحوس ، والمرموق من القلوب ، والبغيض إلى النفوس . . وهى تَلْقَى من تصاريف الأيام وانتقال الأحوال مثلما يلقى كُتَّابُهَا وقراؤها ـ وغير كتابها وقرائها ـ سواء بسواء . فكم من كتاب جليل لازمه الخمول ، كأنه حين يخرج من المطبعة سقط فى جب ، وكم من مؤلف قيّم عَبَرَ «هولاكو» على جُثته ، وأفاض روحه فى وثبته ، فليس الناس وحدهم يموتون ، ولكن هى الكتب أيضًا تحيا وتموت ، وتطول آجالها وتقصر ، وتبيت جميعها ، وتصبح مفرقه . . وقلت لمّا تلقيت الكتابين : يا لها من ثرثارة ! وأحسب أن الواجب يقتضى أن أقرأهما وأعنى بتدبرهما ثم أكتب عنهما . لاشك أن هذا هو

واجبى ـ على الأقل فى رأس آنستنا ـ فما أثقل الواجب ! وما أعظم شَكِّى فى إخلاص من لا يَفْتَئُون يتغنون بحمده ويشيدون بحسنه وجلاله ! مَنِ الذى يحب (الواجب) لذاته؟ أين هذا الفنان الذى يزاول الواجب ويتوخاه إرضاءً لعاطفته الفنية ؟ لست أنا به على كل حال . . » .

ثم يأخذ يتحدث عن الواجب فيطيل الحديث . . ليختم حديثه بقوله :

«كذلك كنت أحدث نفسى قبل أن أفض الغلاف عن الكتابين ، وقد مضت على ذلك أسابيع كنت أقدر أن تكون كلها معاناة للإحساس بمرارة الإذعان لعامل أو باعث من غير النفس ، ولكنى ما كدت أتصفحهما وأقرأ من هذا فصلاً ومن ذلك صفحة حتى شعرت كأن الواجب قد استحال رغبة، وزايلنى انقباضى عن الأدب »(١).

فهو قد قال الكثير لكنه لم يقل شيئًا عن صاحبة الكتابين . . فهل يمكن أن يعتبر ذلك (حُسن تخلُّص) . . أم أنها الطبيعة المازنية التى لا تنصرف إلا بصدق ولا تدع صاحبها يكتب إلا ما له صدى فى نفسه ، وأثر فى قلبه !

غير أن المازنى ـ مع ذلك ـ كثيرًا ما كتب نقدًا لاذعًا ـ وصادقًا ـ ومن أمتع ما كتبه ـ وأعمقه أيضًا ـ نقده لطه حسين فى كتابه (حديث الأربعاء) . . ولنقرأ مستهل أحد هذه الفصول وهو يقول :

« بسم الله أبتدىء ، وعليه أتوكل ، فما بقيت مندوحة عن تقلد السلاح وملاقاة دكتورنا فى الحلبة التى اختارها لنفسه ، وآثرها على سواها . . وعزيز عَلَيَّ أن أُنازِله وأقارعه ، فإنى أنطوى له ـ أو صرت على الأصح أنطوى له ـ على الحب والاحترام . وليتنى ما عرفته ولا خالطته ! إذن لبقيت يدى حرة ترتفع حين تشاء وتهوى بكل قوتها على رأس كتابه فتهشمه ، أو لا تضيره ،

(١) مؤلفه : حصاد الهشيم ـ فصل بعنوان : الواجب ـ ص ١٩٩ ـ طبعة دار الشعب .

وتوهى عظامها ، على قدر ما فيه من مناعة وقدرة على المقاومة ، دون أن أجعل بالى إلى صاحب الكتاب ، أو يبرز لى وجهه فى كل صفحة فيه ، كأنما ظهر كتابه فى الدنيا بفعل الهواء وبتأثير الجو ، كما ينبت العشب من تلقاء نفسه على الصخور ، أمَّا الآن فوا أسفاه ! ألَّف الدكتور كتابًا ودفعه إلى الناس وقال لهم فى تواضع كله كبر : هذا ما رضيت لكم ! وما هو بسفر أو كتاب (كما أتصور السفر والكتاب) وإنما هى مباحث متفرقة (لست تجد فيها هذه الفكرة القوية الواضحة المتحدة التى يعبر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم)، وبالغ فى هذا الضرب من التواضع المقلوب ، فأعلن إلى الناس أنه لم يُعْنَ بهذه المباحث (العناية التى تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتابًا حقًا) وأنه يعلم (أنه شديد النقص ، محتاج إلى استئناف العناية والنظر) كأنما أراد أن يقول : لستم أهلاً للعناية ، وأن فى وسعى أن أؤلف خيرًا من هذا الكتاب ، ولكن لمن ؟ لقراء الصحف السيارة ـ وهم ـ فلا تنس ـ جمهور القراء فى مصر ؟ كلا يا سيدى : لم يكن بد من أن يتجنب الدكتور التعمق فى البحث ، والإلحاح فى التحقيق العلمى ، إذْ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا ! ولكم وددت ـ أنا المازنى ـ حين قرأت هذه المقدمة التى صَدَّرَ بها الدكتور كتابه ، وقبل أن يصل حائك الأقدار ما بين أسبابى وأسبابه أن أُعلّمه احترام القراء ! ولكنى خالطته ، فأحببته مع الأسف ! وإنى لأتمرد أحيانًا على هذه العلاقة التى توثقت عراها بيننا ، ويتقمصنى عفريت النقد الذى لا يُحابِى الأصدقاء . . فأرفع بالفأس كلتا يدىَّ وأشب عن الأرض ، وأهم بالضربة تفلق اليافوخ فيطالعنى وجه الساكن ، وجبينه المشرق ، وهو جالس إلىَّ يُحادثنى ويقاسمنى ما أعانيه من المضض ، ويحمل عنى شر شطريه ، فتهى قبضتى ، وتفلت الفأس ، وتهوى ذراعاى إلى جانبى، وتتملكنى عاطفة فنية تجعلنى أقول : خسارة ! نعم من الخسارة أن أحطم هذا الرأس ! فإن فى الجبين لالتماعًا ، وفى العظام

قوة ، وفى التركيب متانة ، وأولى بذلك كله ريشة المصور لا فأس التحطيم ومعول الهدم ! وليتنى كنت مصورًا ! إذن لأنطقتُ هذا الوجه بما عجز عنه قلم صاحبه . وهكذا كلما نويت للدكتور نقدًا أرانى أمسح له جبينه وألاطفه وأرثيه ! وإنى لأنقم من نفسى هذا ، ولكن ما حيلتى ؟ لست أرى لى خيارًا . . هذه الأسلحة مُلقاة أمامى ، تتخطى يدى من بينها كل درع سردة تتكسر عليها النصال ، ولا تنتقى إلاّ درعًا من الكتان لا تقى ولا تغنى ، وندع المعاول والفُئوس والقواضب والسوط ونتناول ما هو بخيط الحرير أشبه . . لا بأس ! ولنبرز له عزلاً من كل سلاح ! » .

ولقد كان من أطرف وأعمق ما كتبه المازنى نقدًا لأسلوب طه حسين حيث يقول[1]:

« والآن ما رأينا فى أسلوب صديقنا الدكتور طه حسين ؟ الحق أن هذا الموضوع يروق فيه الكلام ! ولقد بدأت الكلام وفى عزمى أن أفيض فى بيان رأيى فى الأسلوب ، ولكنى لم أكد أسود بضعة سطور حتى ألفيت نفسى أوجز وأوجز ، وأوصد كل باب موارب فى طريقى ، وأضيق دائرة البحث ، ثم إذا بى أسأل نفسى : ما رأيى فى أسلوب الدكتور ؟ ولقد تقمصنى والله عفريت النقد ! وإنى لأحس أن عينىّ قد احمرّتا ، ويبلغ من إحساسى بذلك أو توهمى إياه أنى أهم بالتطلع إلى وجهى فى المرآة ! ولا أكتم القراء إنى صرتُ أؤمن بأن لكل منا شيطانًا ، وأحسب شيطانى من أخبث الشياطين ، فإنه يزج بى فى مآزق لا أرضاها لنفسى لو كان الأمر لى ، وإن على مكتبى لأكثر من خمسة عشر كتابًا أستطيع أن أتناولها بما شئت من النقد وأنا آمِنٌ أن ألقى أصحابها إذْ كنت لا أعرفهم ، ولكن شيطانى الخبيث ظل يخايلنى بكتاب الدكتور حتى أخرجته من بين أخواته وقلت له : (تعال يا هذا) ،

(١) كتابه : قبض الريح : فصل الأساليب والتقليد ـ ص ٣٥ ـ طبعة الشعب .

وأخذت أقلب صفحاته كما يفعل المرء بالخروف يريد أن يشتريه لعيد الأضحى . . والحق أقول إنه أعجبنى ! وأنا ألقى الدكتور كل يوم وأحادثه أكثر مما أحادث نفسى ، ولكم قلت لنفسى وهو لا يدرى : (لا يا شيخ ! دع كتاب الدكتور إلى سواه ، فإن للزمالة حقًا واجبَ الرعاية ، وستخجل أن تلقاه بوجهك هذا إن نقدته) . ثم لا أكاد أخلو بنفسى حتى يهمس فى أذنى ذلك العفريت اللعين : إن الأدب فوق الصداقة والزمالة ، وإن (بروتوس) كان يقول : (إنى أحب قيصر ، ولكن رومية أحب إلىّ)، وإن لك كتابًا كما له كتاب فلينقده إذا أحب ، وليس من شأن النقد الأدبى أن يفسد ما بين الصديقين . وهكذا حتى اقتنعت وتناولت القلم ، فكتب به الشيطان ما يأتى :

ـ الدكتور طه حسين رجل أنيس المحضر ، ذكى الفؤاد ، جرىء القلب ، تعجبك منه صراحته ، وتقع من نفسك رجولته وأنفته ، ويعلق بقلبك إخلاصه ووفاؤه ، ويثقل عليك أحيانًا اعتداده بنفسه ! ولما كان ألف أن يملى كتبه ورسائله ومقالاته ، فإن كتبه وحديثه حين يجد فى مستوى واحد ، كائنًا ما كان ذلك المستوى ، فلست تفتقد فى أحاديثه ما تجده فى كتابته من الخصائص والشيات ، ويندر فى غيره مثل ذلك ، ومن شأن الإملاء أن يحول دون مط الكلام ، وأن يجعل الجمل قصيرة ، فلا تطول مسافة بين أولها وآخرها ، وإن يغرى بالتكرير والإعادة إلى حد ما ، كما هو الشأن فى الخطابة، ومن هنا كان أسلوب الدكتور طه خطابيًا ، أو قل : إن الصبغة الخطابية فيه أغلب من الصبغة الكتابية ، وخصائص تلك ومميزاتها أوضح ، فهو فى الأغلب والأعم يوجه الخطاب إلى القارىء كما تفعل حين تُحادِثُ جليسًا لك ، ويقصر جمله ويؤكد عباراته بالتكرير والإعادة ، ويلتمس التأثير من طريق ذلك ، حتى وأنت تقرأ كلامه كأنما كان يهز قبضة يده حين بلغ هذه العبارة ، ويومىء بأصبعه لما وصل إلى تلك ، إلى آخر ذلك .

والخطابة فن مختلف جدًّا عن فن الكتابة ، وأحسب أنه لو كان الدكتور قد ألقى هذه الرسائل ولم يكتبها ، لما جاءت إلاّ كما هى الآن ، ومن شاء أن يكون منصفًا وأن يوفى كتابة الدكتور حقها ولا يعدو بها مكانها فلينظر إليها بهذه العين ، وليزنها بما تُوزن به الخطابة لا بما تُقَدَّرُ به الكتابة .

إذن أنا أخرجها من عالم الكتابة ؟ نعم ! ولا أراها إلاّ خُطَبًا مدونة . ولست أريد أن أقف حتى هنا ، بل أزيد على ذلك وأضيف إليه أنها خلت من مزايا الفنين جميعًا . . !! فأما مزايا الكتابة فقد عطلت منها ، لأن صاحبها يمليها إملاءً ثم لا يعود إليها بتنقيح أو تهذيب ، ولو أنه كان يتعهدها بعد أن يمليها بشىء من الإصلاح لخلت على الأرجح من أكثر ما فيها من التكرير ، ولعُولج بعض ما يعتورها من العيوب ، ولكنه لا يفعل ، وقد صدق فى قوله : (إنى ما كتبتُ فصلاً إلاّ وأنا أعلم أنه شديد النقص ، محتاج إلى استئناف العناية به والنظر فيه ، وأنا أُقدر أن سيتاح لى من الوقت وفراغ البال ما يمكننى من استئناف العناية وهذا النظر ، حتى إذا فرغت منه ونشرته السياسة عرضت لغيره فى مثل هذه الحال العقلية التى عرضت له فيها ، معتزمًا أن أستأنف العناية به والنظر فيه ، مستحييًا أن أقدمه إلى الناس على ما فيه من نقص وحاجة إلى الإصلاح ، والأيام تمضى ، والظروف تتعاقب ، مختلفة متباينة أشد الاختلاف وأعظم التباين ، ولكنها كانت تحول دائمًا بينى وبين ما كنت أريد من تجديد العناية واستئناف النظر ، وأى الكُتّاب وأى الباحثين لا يشكو مثلى هذا فى مثل هذه الأيام التى نعيش فيها؟) .

وأما خلوها من مزايا الخطابة فلأنه لا يمليها على أنها خطب تُلْقَى ، بل على أنها مقالات وفصول تُقرأ ، وإن كانت طبيعة اعتياد الإملاء تجعلها أقرب إلى الخطب منها إلى الرسائل . ومتى كان هذا هكذا ، فأى غرابة إذا قلنا إنها خالية مِمَّا لم يتحرَّه فيها ـ أى من خصائص الخطب ومزاياها ؟ وكما أن الخطب

تفقد كثيرًا من قوتها وتأثيرها فى نفوس الناس حين يقرءونها ، كذلك مقالات الدكتور من عيوبها أن الناس يقرءونها ولا يسمعونه يلقيها .

ولا شك أن أظهر عيب فى مقالات الدكتور هو التكرار والحشو ، وما هو منها بسبيل ، وعندنا أن علة ذلك ليست فقط إنه يُمْلِى ولا يراجع ما يملى ، بل الأمر يرجع فى اعتقادنا إلى سببين جوهريين ، أولهما : أن ما أُصيب به فى حياته من فَقْدِ بصره كان له تأثير لا نستطيع أن نقدر كل مداه فى الأسلوب الذى يتناول به موضوعاته ، وفى طريقة العبارة عن معانيه وأغراضه ، ولسنا نتحرج أن نذكر ذلك ، فإنه أعرف بنا من أن يشك فى عطفنا ، بل نحن أعلى به عينا ، وأسمى تقديرًا من أن نعتقد أن به حاجة إلى هذا العطف ، وليس يخفى أن المرء إذا حِيَل بينه وبين المرئيات ضعف أثرها فى نفسه ، ولم تعد الكلمة الواحدة تغنى فى إحضار الصورة المقصودة إلى ذهنه بالسرعة والقوة الكافيتين ، فلا يسعه فيما نعتقد إلاّ الإسهاب ومحاولة الإحاطة ومعالجة الاستقصاء والتصفية .

وثانى هذين السببين : أنه أستاذ مدرس ، وقد طال عهده بذلك ، والتعليم مهنة تعود المشتغل بها التبسط فى الإيضاح ، والإطناب فى الشرح ، والتكرير أيضًا ، بل تفعل ما هو شر من ذلك ، وأعنى أنها تدفع المرء عن الأغوار والأعماق إلى السطوح ، وبعبارة أجلى : تضطر المدرس أن يجتنب التعمق والغوص ، وأن يكتفى ـ ما وسعه الإكتفاء ـ بما لا عُسْرَ فى فَهْمِه ولا عناء فى تلقِّه . . وتلك آفة التدريس ، ولولا أنى أعرف كَلَفَهُ به ، وإقباله عليه ، وهشه له ، لدعوتُ له الله أن يريحه منه كما أراحنى » .

قال المازنى : « وهنا صرف الله عنى السوء وأذهب عنى الشيطان ، فوضعتُ القلم وأنا أحمد الله أن لم يستكتبنى إلاّ هذا التحليل البرىء » .

وإذا كنا قد أطلنا النقل حتى لم نجد سبيلاً للاجتزاء ببعض المقال عن بعضه الآخر ، فمرجع ذلك عدة أمور :

ـ أولها : رغبتنا فى أن ننقل صورة من نقد المازنى كاملة .

ـ وثانيها : أن الموضوع « المنقود » من أهم الموضوعات : أسلوب طه حسين . . وهو الأسلوب الذى فَتَنَ ـ ومازال يفتن ـ قُراء العربية . . ويكفى أن طه حسين وُصِفَ ـ ويوصف ـ بأنه « عميد الأدب العربى » .

ـ وثالثها : أن هذا النقد حتى وإن لم توافق عليه إلاّ أنه لا يسعك إلاّ أن تحترمه .

ـ ورابعها : أنه يعطينا صورة من المازنى الناقد ، والساخر ، والضاحك ، والوفى ، والصادق ، والمخلص فى آنٍ واحد .

وخامسها : ما رأينا أن نشرك فيه قارئنا من المتعه بقراءة هذا الفصل الذى يندر أن تجد له مثيلاً .

وبعد :

فنحن وإن لم نوافق المازنى على هذا الذى ذهب إليه بالنسبة لأسلوب طه حسين إلاّ أننا نقر بأن فيه بعض الحق ، وإنْ كان قد عمد إلى المبالغة والتضخيم . . ومع ذلك فسوف تبقى كتابات المازنى عن طه حسين من أرق وأعمق وأصدق ما كتب ناقد عن طه حسين .

وبرغم كل ما نقلناه عن المازنى الناقد ، فقد فاتنا الكثير مما كتب المازنى ، وهو نفسه قد أشار إلى ذلك فى ختام ـ أو خاتمة ـ كتابه (حصاد الهشيم) ، فقد كتب يقول [1]:

« الكتاب كما هو الآن فى يد القارىء يمثل منزع الناشر أكثر مما يمثل نفس الكاتب . فقد أَبَى إلاّ أن يخليه من نقد المعاصرين ، ليريح نفسه من حماقات المعاتبين . وحسنًا فعل ، أو شرًّا فعل ـ كما تريد ـ ومَنِ الذى

(1) مؤلفه ـ حصاد الهشيم ـ خاتمة ـ ص ٣٣٤ ـ طبعة دار الشعب .

يستطيع الراحة ولا يستريح ؟ غير أن الكتاب بهذه الصورة يعرض منى جانبًا، ويطوى جانبًا ويصورنى للقراء لينَ الملمس ، ويستر أظافرى ، ويبدينى مفتر الثغر، منزوع النيوب ، مقلوع الضروس . . ولست أبالى كيف أبدو للقارىء . . وما كنت لأعنى بجمع هذه أو تلك من مقالاتى ونشرها، بعد أن طُويت مع الصحف التى ظهرت فيها ، لولا أن فرجت بذلك أزمة كانت مستحكمة ، وما أرانى أنقذتها أو أحييتها ، بل بعثتها من قبورها لتلقى حسابها . . ولعله كان خيرًا لها أن تظل ملفوفة فى أكفانها » .

المازنى كاتب ـ بل مبدع لفن ـ المقال :

ربما كان الانتقال بالمقال من مجرد مساحة يشغلها كاتب بما لديه من فكرة أو رأى أو خبر ، أو مزيج من ذلك كله ـ إلى فن قائم بذاته . . هو الأثر الذى أحدثه المازنى فى عالم الكتابة . كان المقال ـ من قبل ـ حشدًا من المعارف أو المعلومات أو الأخبار ، وإن تضمن بعض الآراء أو الأفكار ، تُصاغ جميعها فى أسلوب يختلف قوة أو ضعفًا باختلاف كاتبه وحظه من الإتقان للغة ، والإحاطة بفروعها من نحو وصرف وبيان وبديع ـ وإن احتوى فى بعض الأحيان على صورة فنية فإنها لا تأتى إلاّ مصادفة . . حتى كانت مقالات المازنى ، فإذا هى فن خالص ، ونسيج متميز ، وصياغة غير مسبوقة . . وإذا به يجعل من (المقال) عالمًا ساحرًا يرتاده الكثيرون ، يُسايرون المازنى فى طريقته ، ويرتادون ما يرتاده من مجالات متنوعة . . وإذا بالمقال يصبح (المادة) الأساسية فى مختلف الصحف والمجلات ، وإذا به يحتل المكانة الرئيسية ، وإذا بنا نرى الكثيرين ممن أصبحوا مبدعين فى مجاله . . فضلاً عَمَّنْ عرفنا : طه حسين ـ العقاد ـ هيكل ـ أحمد أمين . . فإننا نقرأ لعبد العزيز البشرى ، ولمحمد فريد أبى حديد ، ولمحمد عوض محمد، ثم لزكى نجيب محمود . . وسلامة موسى . . . نقرأ لكل هؤلاء مقالات هى فى حقيقتها أبحاث ، وصور ، ونتاج أدبى ، وفنى ، وفلسفى ، وسياسى ،

واجتماعى ، واقتصادى . . رائع ، يقوم على الإبداع الفنى من ناحية ، وعلى الثقافة الموسوعية من ناحية أخرى ، وعلى درجات تتنوع من التميز والتفرد بين كاتب وآخر ، فلكل منهم أسلوبه ، ومنهاجه ، وأفكاره . . ولكن يبقى المازنى بينهم هو صاحب القلم المبدع على الدوام ـ أيًا ما كان موضوعه ـ والذى يحرص فى كل ما يكتب على أن يقدمه تقديمًا فنيًّا فيه طرافة ، وفيه سخرية، وفيه ثقافة دائمًا . . ولا تخطىء فى أىٍّ من مقالاته روحه المرحة ، ولا نزعته الفنية ، ولا نظرته التى تقع على ما لا يلتفت إليه الكثيرون .

وكثيرة كثيرة هى المجالات التى ارتادها المازنى . . حتى لقد جعل من الصحف موسوعة ثقافية تغنى قراءها ، وتثرى حصيلتهم من الفكر والثقافة والآراء الصادقة والنظرات الصائبة .

وقد نلاحظ أن معظم كتبه ـ حتى الروايات ـ قد نُشرت فصولاً منجَّمة فى الصحف والمجلات المختلفة .

إن مقالات المازنى فى الصحف لأكثر من أن تُحصَى . . وإن أى إحصاء لها سوف يغفل عن جانب كبير منها . . لقد بلغ مجموع ما أحصاه كتاب : أعلام الأدب المعاصر فى مصر : إبراهيم عبد القادر المازنى ، الذى أعده الأستاذان حمدى السكوت ـ ومارسدن جونز ـ من مقالات نُشرت للمازنى فى مختلف الصحف والمجلات (٢٠١٢) مقالاً . . وذلك إضافة إلى كتبه وأحاديثه . . فانظر كيف كان كاتبًا ثريًّا مثريًا ، حتى ليمكن القول إنه ما كان يمر يوم إلاَّ وتقرأ له مقالاً أو أكثر فى العديد من الإصدارات الصحفية . . وذلك كله إضافة إلى ما نشره بدون توقيع ، وما أحسبه إلاَّ كمًّا كبيرًا أيضًا .

وقد أفرد الدكتور محمد يوسف نجم بين صفحات كتابه (فن المقالة) حيزًا كبيرًا تناول فيه فنية المقال عند المازنى . . ففى أكثر من موضع رصد سمات (المقالة) عند المازنى :

« تلجأ إلى تقسيم المقالة الحديثة إلى نوعين هما : المقالة الذاتية والمقالة الموضوعية . . فى النوع الأول تبدو شخصية الكاتب جلية جذابة ، تستهوى القارىء ، وتستأثر بلبه ، وعدته فى ذلك الأسلوب الأدبى الذى يشع بالعاطفة ، ويثير الانفعال ، ويستند إلى ركائز قوية من الصور الخيالية ، والصفة البيانية ، والعبارات الموسيقية ، والألفاظ القوية الجزلة . والمثل الواضح على ذلك مقالات (لام) فى الأدب الإنجليزى ، ومقالات (المازنى) فى أدبنا » (١) .

ويقول فى موضع آخر :

« ولكن القيمة الحقيقية للمقالة ، تعتمد فى المقام الأول على مدى تجليتها للشخصية الإنسانية تتوارى خلفها فى خفة وحياء . . إن شخصية الكاتب الأليفة العذبة هى التى تستهوى القارىء ، وتملك عليه أقطار نفسه ، بما فيها من خفة وسحر ، وجاذبية وتألق ، وذوق مصقول لا تفسده فظاظة ، ولين لا يتدنى إلى درجة الميوعة . وكذلك مقالات المازنى لا تستهوينا بما فيها من الأفكار العميقه والآراء المنيرة ، بل بما فيها من براعة فى التصور ، ومقدرة على انتزاع الفكاهة من أكثر وجوه الحياة عبسًا وتجهمًا » (٢) .

وأحسب أن عبارته الأخيرة كان ينبغى أن تُصاغ هكذا : « مقالات المازنى قد لا تستهوينا أحيانًا بما فيها من الأفكار العميقة والآراء النيرة ، ولكنها تستهوينا دائمًا بما فيها من براعة فى التصور ، ومقدرة على انتزاع الفكاهة من أكثر وجوه الحياة عبوسًا وتجهمًا» .

وداعينا إلى ذلك هو ما قدمناه ممَّا كان يتسم به فكر المازنى ـ فى الحقيقة ـ من عمق وأصالة ، وربما كانت نزعته إلى الفكاهة والاستخفاف هى التى

---

(١) دكتور محمد يوسف نجم : فن المقالة ـ دار الثقافة ببيروت ـ ط رابعة ـ ص ٩٦ .

(٢) المرجع المذكور ـ ص ١٢٩ .

أدت بالبعض إلى التوهم بأن فكره غير متعمق . . ولكنه ظنٌّ ما يلبث أن ينمحى بعد دراسة فكر المازنى دراسة مؤصلة . . وهو ذاته ما قرره نفس الكاتب فى موضع آخر حيث قال : « . . . وهذا لا يعنى أن المازنى أقل حكمة وعقلاً من رفيق عمره ، ورصيف [*] صباه ـ العقاد ـ بل إن نظرته إلى الحياة فى بعض الأمور أشد عمقًا ، وأكثر أصالة ، ولكنه مرح ، فكِه ، ثرثار، عابث ، يرضيه أن يبث قارئه كل ما فى قلبه ، أمَّا العقاد فلا يتيح لأفكاره أن تستقبل القراء إلاّ بعد أن يستمد لها مقصًا حادًّا قاسيًا لا يرحم»[١].

والدكتور نجم يفرد الفقرات التالية ليرسم صورة كاملة لفنية المقالة عند المازنى [٢].

« . . . والمازنى كلما حاول الجد ـ وهو قلما يحاول ذلك ـ خانته طبيعته ، فاستثقل مسوح الوعاظ ، وألقى عن كاهله طيلسان المفكر العابس ، أو الأستاذ الجامعى المتزمت . فكأنه كان يكتب كتبه ، ونصب عينيه قولة مونتين المشهورة : (هذا الكتاب يقوم على موضوع بيتى خاص ، وقد وقفته على أصدقائى ، حتى إذا ما افتقدونى ـ وهذا ما سيحدث سريعًا ـ وجدوا فيه بعض ملامح من أحوالى وفكاهتى . وهكذا يتاح لهم أن يحتفظوا بمعلوماتهم عنى على صورة أكمل ، وبطريقة أكثر حيوية) .

ولذا فهو يسعى أن يعرض على القارىء صورة نفسه ، صادقة واضحة ، بما فطرت عليه من دماثة أو جمال ، وبما امتازت به من أساليب فى التفكير والتأمل ، وما علق بها من غبار التجارب ، وما جنته من ثمار الحياة، حلوها

(*) يقال : فلان رصيف فلان ، أى : يحاكيه فى عمله ويألفه ولا يفارقه . [انظر : المعجم الوسيط ـ مادة « رصيف »] .

(١) المرجع المذكور ـ ص ٨٦ .

(٢) المرجع المذكور ـ ص ٨٦ : ٨٩ .

ومرّها ، ناضجها وفجّها ، وكان إذا ما وضع القلم على القرطاس ، وانهالت عليه الأفكار الطريفة ، والصور المونقة ، واللفتات البارعة ، فتدفق فى حديثه وتبسط ، وأفرغ ما فى نفسه دون تمويه أو تصفية ، وكأنه يرى أن حياته الخاصة ، ملك للبشرية ، فلا يضن على الورق ، صدّقها القارىء أو لم يصدقها . وهو لا يعرض الموضوع بمقدماته ونتائجه ليقدم إليك صورة واضحة من عملية التفكير ، بل يحيلك إلى موضع الأسرار من نفسه ، فيعرض عليك انبثاق التجارب فيها ونموّها واكتمالها . وهو يرى أن كل شىء تقع عليه عينه يصلح لأن يكون موضوعًا للكتابة ، فهو يتقبل المنحة ، سواء كانت من يد عجوز شمطاء أو من يد غادة لعوب . وعالمه هو عالم الأساطير والخرافات الشعبية ، تتنزى فيه أشباح الموتى واللصوص ، وقطاع الطرق ، وخفافيش الليل [١] . فى صميم الحقيقة فى مجتمعه ، فهو يدور من حولها ، ولا يحوم ولا يرد ، يضحك من نفسه ، ومن قارئه ويجسّم عاهاته ونقائصه ، ويتصرف تصرفات (دونكيشوتية) ويجول فى آفاق الحلم واليوتوبيا . وهو قادر على أن يفاجئك دائمًا ، وأن يأتيك من مأمنك بذهن متوقد وحيوية متدفقة ، ومرح يبعث على الضحك المجلجل الصريح .

يبدأ مقالاته أحيانًا ببعض الخواطر العابرة ، أو الأفكار التافهة ، ثم ينتقل إلى الجدّ ، ولكن بطريقته الخاصة ، وهو يخدع القارىء عن نفسه ، ويوقعه فى حبائله بسهولة ويسر ، حتى يظن أنه أمام عابث لاه ، لا عمل له إلاّ السخرية والضحك ، ولكنه فى الحقيقة بعيد الغور عميق القرار . . فهو حين يحدثك عن خصوصياته ، عن زوجه وابنته وأبنائه وجدته العجوز ، يشعرك بأنه يجاذبك أطراف حديث سخيف لتزجية الفراغ وقتل الوقت ، فلا

(١) نجد لذلك أمثلة من تلك الصور التى تضمها دفتا كتابيه : صندوق الدنيا ، وخيوط العنكبوت . حيث إن بهما فصولاً عديدة عن صور من طفولته وصباه . . هى من أمتع ما عرفه الأدب العربى من كتابات نثرية .

تنخدع بذلك ، إنه يخفى بعمله جوهر الحقيقة ـ حقيقة النفس المتألمة الحزينة، التى ترى أن خير وسيلة لنسيان الألم هى مبادرته باللهو والعبث واللامبالاة . فمرحه مُبَطَّن بحزن دفين ، ومن هنا نلمس هذا التناقض الخفى فى آرائه وصوره . فهذا المَرِحُ المولع بالفكاهة والنكتة يقشعر بدنه ، ويقف شعره عند ذكر الموت . وهذا الشاك الذى لا يؤمن بأى شىء ، يتعلق دومًا بحبال الدين ، ويتدنى فى إيمانه إلى منزلة إيمان العجائز ، ويرنو بعينيه إلى المثل العليا ، ولكنه يرى فى نفسه عجزاً عن بلوغها ، منبعه كسب رُكِّب فى طبيعته ، أو شك فى مقدرته وفضائله . وهو أثناء ذلك كله متمسك بأثارة من الفكاهة التى تظهر على صور مختلفة ، وتتجلى فى مواقع متباينة ، هى مرح سطحى هنا ، وعبث لاهٍ هناك ، وسخرية لاذعة مُرَّة هنالك . وبهذا وحده كان المازنى نسيج وحده فى أدبنا ، بل هو ظاهرة لم تتكرر فى أدبنا المعاصر ، وإن تكررت مرتين فى أدبنا : فى الجاحظ والشدياق .

ولعل خير ما نختم به هذا الموضوع هو تلك الخاتمه التى أوردها الدكتور محمود أدهم فى نهاية بحثة القيم : إبراهيم عبد القادر المازنى بين التاريخ والفن الصحفى ـ فقد كان ختام بحثه المطوّل قوله :

« نقول . . إن هذه الجوانب المازنية كلها ، سوف تبقى من الرجل للتاريخ والفن والدرس الصحفى معًا :

١ ـ إنه من أفضل وأصدق (النماذج البشرية) التى تقدم صورة واضحة لمكونات الكاتب الصحفى . . وثقافته . . واهتماماته . . فالرجل قد كرس وقته وجهده منذ أيام نشأته الأولى وحتى وفاته للقراءة والدراسة والثقافة العامة .

٢ ـ إنه من خلال حياته عامة ، وكتاباته خاصة ، يقدم الدليل الحى

والهام أيضًا ، على ضرورة أن يكون محررًا ـ أو كاتبًا ـ قريبًا من المجتمع ، لصيقًا بأفراده ، يفكر كأحدهم ، ويحس بإحساسهم ، ويشعر بمشاعرهم، يفرح لفرحهم ، ويتألم لآلامهم ، ويترجم ذلك كله إلى مادة كتابية تنعكس عليها صور اهتماماتهم ، وتشخيص أدوائهم ، وتحاول أن تقدم لها العلاج المناسب ، والدواء الناجح .

٣ ـ فإذا انتقلنا من ذلك إلى جانب تدريس ما يعنيه القول المأثور : الأسلوب هو الرجل أو الشخص نفسه ، وما يتصل به من ظلال ، وما يرتبط به من صور ، لم نجد كذلك أفضل من تلك الزوايا العديدة التى تقرر فى النهاية أن حياة المازنى ، بما خاضه من تجارب ، وبما عركه من خبرات ، وما طاف به من قراءات ، وما سبر غوره من دراسات . . جميعها أورثته نظرة خبيرة ، وفكرًا شموليًّا ، وحسًّا مرهفًا ، ودقة ملاحظة تلتقط ـ كأفضل المحررين ـ أصغر وربما أقل التفاصيل وأكثرها (تفاهة) فى نظر البعض ، فإذا هى تتحول إلى لغة تقرأ خلال سطورها ذلك كله ، وإلى أسلوب يعكس صدق التجربة وعمق الإحساس ، وفضيلة الثقافة . . نعم . . كان أسلوب المازنى هو خير دليل عليه ، وعلى حياته ، وصورها ، وشاهدها .

٤ ـ . . وإنه من طليعة الكُتَّاب الذين تحملوا مسئولية الكتابة الوطنية والقومية معًا ، فى وقت عزَّ فيه هؤلاء ، بل وفى موضوعات جديدة تتحدث عن جرأتهم وشجاعتهم ، وصدقهم مع أنفسهم . . معًا دون حذف أو وجل من منصب أو جاه أو سلطة أو نفوذ .

بل إنه مما يُحسب له تمامًا على الرغم من اختلاف الأوقات والسياسات والزعامات أنه مَدَّ بصره فى اتجاه جمع شمل العرب ، وكان من أوائل الذين تحدثوا ـ وبإسهاب ـ عن وحدة العرب ، وتضامنهم خلال هذا القرن .

٥ ـ إنه فى كتاباته الصحفية كان يكتب على الفور ، وكانت كتابته (بنت

لحظتها) . . حالية دائمًا ، تعكس حسًّا صحفيًّا تحريريًّا بالغ الدقة ، ومقدرة فنية على تصيد الأفكار فى سرعة مذهلة ، وعلى تغطيتها من جميع زواياها . . كل ذلك ، فى أى مكان يوجد به ، فى منزله أو مقر الصحيفة ، أو المقهى ، أو حتى وبعض الأصدقاء يجلسون إليه .

٦ ـ إنه يعتد دون شك بأفكاره المتنوعة ، ومادته غير الحالية ، وأساليبه التى جمع فيها بين الأسلوبين الأدبى والصحفى ، وبما أضفاه على جوانب تحرير وحداته الفنية ، من مزيج رائع يجمع بين الذوق الأدبى والحسّ الصحفى .

٧ ـ وأمّا فى جانب فنون وأنماط التحرير الصحفى ، وتأسيسًا على ما سبق تقديمه من مادة ، فإننا نستطيع أن نقول : إن الرجل كان ـ وفى وقت واحد :

ـ من أبرز رواد فن (المقال القصصى) فى الصحافة العربية عامة ، والمصرية خاصة ، بكل ما يتصل به من فكر ومضمون وتعبير وأساليب .

ـ وإنه كذلك من أبرز رواد (المقال الفكاهى) فى هذه الصحافة ، بما يتصل به كذلك من أفكار ومضامين وأساليب تحريرية وملامح كاريكاتورية وساخرة .

ـ وأن له إبداعه الأدبى الصحفى عامة ، والمجلاّتى خاصة ، فى مجال « الصور القلمية » الصحفية هنا ، بما اتصل بها من دقة انتقاء ، وحُسن تصوير ، وحتى فى حالات نقدها ، أو الهجوم عليها .

ـ إن مقالاته النقدية عامة ، والنزالية خاصة ، والتحذيرية على وجه التحديد ، لها موقعها « الاستراتيجى » ، والهام والفريد أيضًا على خريطة هذا النوع من المقالات.

٨ ـ وأمّا فى جانب وحداته التحريرية الفنية : العنوانات ، والمقدمات ، والنصوص ، والنهايات ، فإن دراسة النتاج المازنى تضع يد الدارسين والباحثين على أن الرجل :

ـ من خيرة صُنَّاع ومبدعى (العنوانات) على كافة ألوانها وأشكالها .

ـ وقد أتقن كتابة عدد من المقدمات بما يدل على معرفته الكاملة بها ، وفهمه لمسئوليتها .

ـ وأمّا عن النص أو المضمون ، فهو أحد المبرزين فى كتابة مادته وفق قوالب القصة والعرض والحديث ، بل والحوار أيضًا ، بل لقد مزج مزجًا يثير التعجب بين أكثر من قالب تحريرى واحد .

٩ ـ ثم كتاباته الداعية إلى حرية القلم والتعبير ، المؤيدة لها ، الحاثة عليها، والتى تعتبر صفحة بيضاء فى تاريخ حرية الصحافة . . ويتصل بذلك دفاعه عن مهنة الصحافة عامة وجدارتها بأن تكون من المهن العظيمة المحترمة ، واستحقاقها لنظام يحفظ عليها كرامتها ، ويليق بها ، ومشاركته من خلال ذلك فى إنشاء نقابة الصحفيين ، بما مَرَّ بها من تطورات ، وعضويته لعدد من مجالسها الأولى . . كما يتصل بذلك أيضًا دفاعه عن غيره من المحررين والكاتبين ، فى حال تعرضهم للاعتقال أو السجن . . وهو موقف كريم يُحسب له . . وللقلة من أمثاله . . »[1].

***

(١) دكتور محمود أدهم : رواد الصحافة العربية (٢) ـ إبراهيم عبد القادر المازنى بين التاريخ والفن الصحفى ـ ص ٢٤٩ : ٢٥٥ .

الخاتمة

هذا هو المازنى (كاتب مقال) .. ولو راجعنا كتبه التى نُشرت وما ضمته مما كتبه من مقالات لوجدنا أنها لم تضم إلاَّ قلة قليلة مما أبدع المازنى من مقالات شغل بها الصحافة والصحف والمجلات طوال أربعين سنة متصلة .. ظل طوالها يغذّيها بكتاباته : مقالاتٍ وقصصٍ ، وصورٍ قلمية .. ولا يزال هذا الإبداع « المقالى » تنطوى عليه تلك الصحائف التى لم يعد إلى قراءتها أو الاطلاع عليها من سبيل .

إننا بإزاء إنتاج ضخم ومتنوع ، بل هو ثروة نعتز بها ، وينبغى أن نعمل على إحيائها وبعثها ، وإعادة نشرها على قارىء اليوم، وإننى لأثق أنها سوف تلقى قبولاً وإقبالاً منقطعى النظير.

وعسانا أن نوفق إلى استخراج بعض هذه الكتابات من بطون بعض الصحف والمجلات ، وإنْ كان جهدنا لن يقوى على الغوص فى كل الصحف والوصول إلى إبداعاته المتنوعة .

إننا بإزاء مهمة على قدر كبير من الأهمية ، فليت الجهود تتضافر لاستخراج إبداعات المازنى ، وتصنيفها ، ودراستها ، وعرضها .. فهى جديرة بذلك ، وتستحق كل جهد يُبذل من أجل إحيائها .

ورحم الله المازنى بما أهْدَى من فكر ، وبما قَدَّم من فن ، وبما أبدع من إبداعات، فقد كان رائدًا صادقًا ، وعَلَماً متميزًا ، وقَلَمًا معبرًا - رحمه الله تعالى .

***

الفهـــرس

* * *

عـربيـة للطباعة والنشر
7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين
تليفون : 3256098 - 3251043